مجلة
روايات أحلام

liilas.com
rayqh

السيد الحب

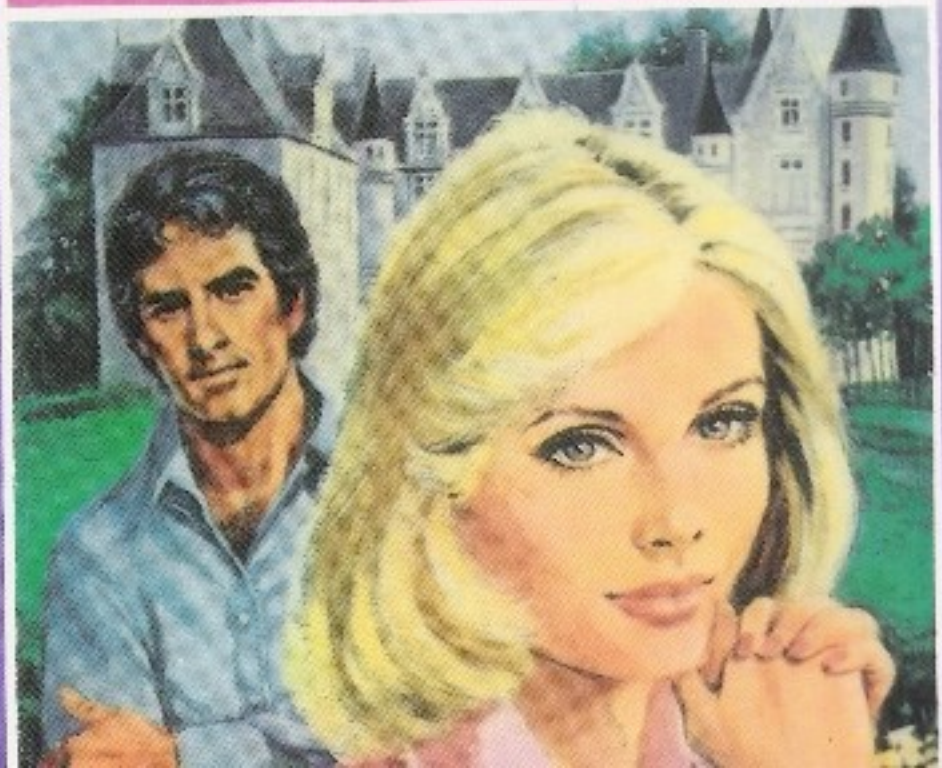

liilas.com
rayqh

مجلة روايات أحلام

السيد الحب

«- هل تظنين أنك تستطيعين النجاح حيث فشل غيرك؟
- أؤكد لك سيدي أنك ستجدني كفؤة في كل شيء!».

كل شيء؟! كان هذا تهوراً من اوليفيا، فمع رجل مثل اللورد كادوغان كان عليها توقع أي شيء، فسيد القصر رجل صعب المراس، في دمه عجرفة أسياد الماضي، وفي عينيه عبث شباب الحاضر.

اعتبرها اللورد، منذ دخولها قصره، أملاكاً خاصة له حق التصرف بها كما يشاء، وجرّها إلى شباك إغوائه خطوة خطوة حتى وجدت نفسها تائهة في غرف القصر المائة، ولا مهرب لها منه. فهل تحميها ذكريات ماضيها؟

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦د.	مصر ٤ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ر.	المغرب ١٥د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ف.	تونس ١٠٥د.	السودان
الكويت ٥٠٠ف.	السعودية ٧ر.	عمان ٦٠٠ب	العراق

liilas.com
rayqh

١ ـ على حصان السيد

كانت اوفيليا، وهي تقود سيارتها عبر الطريق الريفية المهجورة، تتمنى لو أن المدفأة في سيارتها القديمة تعمل بشكل أكثر كفاءة. فاليوم هو منتصف شباط، والطقس القارس يكاد يجمد أطرافها. والريح الثلجية كانت تهب فوق الحقول، في ظل سماء ملبدة بغيوم سوداء تهدد بانهمار المطر، وتساقط الثلوج.

نظرت الفتاة الى ساعتها بقلق، واطلقت تنهيدة ارتياح قصيرة، فلا داعي للخوف... أمامها متسع من الوقت، ولن تتأخر عن موعدها مع اللورد كادوغان.

تساءلت في نفسها عما يكون شكله، ثم قلبت شفتيها... لا بد انه وحش كاسر، هذا إذا كان عليها أن تصدق الشائعات! فوكالة «المساعدة المكتبية» كانت قد ارسلت حتى الآن سكرتيرتين تلبية لمكالمات هاتفية مستعجلة من قبل قصر «كادوغان هال» التمس فيها المساعدة العاجلة: فالسكرتيرة الأولى غادرت مقرّ عملها باكية بعد بضع ساعات من مباشرة وظيفتها. أما الأخرى فقد كانت أكثر رباطة جأش، إذ تحملت مشقات العمل بضعة أيام، قبل أن تلتمس الهرب، معلنة أن ما من طريقة تجعلها تضع قدمها في ذلك المكان ثانية.

وإزاء ما جرى رأت أوفيليا مكرهة، أن من الأفضل لها التدخل شخصياً، وإنجاز المهمة بنفسها. وأصبح من الواضح لها أن اللورد كادوغان مزعج حقيقة، على الرغم من علمها أن ليس بوسعها أن تتحمل إغضابه وإثارة أعصابه. فوكالتها (المساعدة المكتبية) كانت ناجحة اكثر

مما تصورت أصلاً حين أسستها، لكنها بكل تأكيد، لم تكن في وضع يسمح لها بإغضاب الزبائن الأغنياء، واللورد كادوغان رجل وافر النقود والثروة حقاً.

انطلقت السيارة بها سعيدة لبضع دقائق.. لكن ما إن قطعت مسافة قصيرة، حتى بدأت تسمع قرقعة تنذر بالشر من تحت غطاء المحرك.. فسارعت الى إيقاف السيارة جانباً واطفأت المحرك، وهي تقول متأوهة:

ـ أوّاه.. لا اصدق هذا!

حاولت إدارة المحرك ثانية، لكن ذلك الصوت المزعج كان أسوأ هذه المرة. من الواضح ان هناك شيئاً خطيراً قد حدث وأن لا شيء سيعيد المحرك الى العمل السويّ سوى إصلاح العطل الرئيسي الذي طرأ على محرك السيارة.

هكذا خرجت أوفيليا من السيارة، وهي ترتجف والريح تضربها ببرودة ثلجية، شدّت معطفها حولها بإحكام، ثم نظرت باستياء وتجهّم.. الطريق الريفية مهجورة تماماً.. وما من دليل على وجود سيارات، أو حتى بشر على مقربة منها.. لقد بدا لها أنها علقت هنا.. فليس هناك من منازل يمكن أن تلجأ إليها لتستخدم الهاتف.

اخذت تذرع الطريق جيئة وذهاباً عدة مرات، محاولة التفكير بما ستفعل.. وبطفرة غضب عابرة، لم تكن مألوفة من طباعها وجهت ركلة قوية الى السيارة، لكن هذا لم يفدها بالطبع بل أنها ببساطة آلمت أطراف أصابعها، التي اخذت تنبض بالألم للحظات، مما جعلها تقف، وتحدق الى الأمام، وهي تفكر مذعورة في أمر الخروج من هذه المشكلة التي وقعت فيها. المشكلة الوحيدة أن لا حلّ لمشكلتها، فلو حاولت أن تصل الى «كادوغان هال» سيراً على القدمين، فستصل متأخرة جداً.. وهي، ومعها الوكالة، ستهبط بسمعتها الى الحضيض، وإلى الأبد، في نظر اللورد.

تمتمت لنفسها، متجهمة:

ـ ما أحتاج إليه، هو فارس على جواد أبيض مطهّم.. فما يوجد هنا

هو آنسة في محنة اكيدة.

لكزة رقيقة من الخلف جعلتها تقفز مدهوشة.. لم تسمع أحد يتقدم من خلفها، فاستدارت مسرعة لترى من يكون الآتي.. ثم أطلقت صرخة ذعر مخنوقة حين وجدت نفسها تواجه اضخم كلب شاهدته في حياتها.

رأسه الضخم كان يصل الى خصرها، عيناه السوداوان كانتا مثبتتين عليها بذكاء وحشي، جعل أعصابها تتوتر تماماً.. وأخذت تفكر بأن تسرع هاربة إلى سيارتها.. ثم سرعان ما نبذت الفكرة، فالكلب لا يبعد سوى اقدام قليلة عنها ويبدو قادراً على التحرك أسرع منها، وبمهارة عالية، ولو قرر مهاجمتها لن تكون لها الفرصة في الوصول إلى سيارتها قبل ان يطبق فكيه حولها.

جلبة أصوات علت الى يسارها وجعلت بصرها يرتد الى تلك الناحية، وما هي إلا لحظة حتى أخذت عيناها ترفرفان غير مصدقتين لما يجري أمامها. إنها مقتنعة بأنها ترى الأشياء تتكرر أمامها... كلب ضخم آخر، يمثل أمام نظرها صورة اخرى عن الكلب الأول، الوبر الخشن الرمادي نفسه، والحجم الضخم غير المعقول عينه، والنظرات الحادة الشرسة ذاتها، والفكان القويان المرعبان هما هما...

ابتلعت اوفيليا ريقها بصعوبة، هذا موقف غير مضحك بكل تأكيد.. وأخذت تتمتم بارتجاف:

ـ أوّاه.. كلبان طيبان.. كلبان لطيفان.. أريد حقاً أن نصبح أصدقاء..

لكن الكلبين لم يبدو عليهما التأثر بمحاولتها التقرب منهما.. بل حدقا إليها بعيون لا ترفّ، فأحست إحساساً رهيباً بأنهما يقيّمانها ليقررا ما إذا كانت صديقة لهما أم عدوة. ثم تقدم الكلب الأقرب إليها بضع خطوات نحوها، فأحست باصطكاك ركبتيها حين لامس أنفه يدها ليشمها، ثم وقف دون حراك... لكنها لم تستطع كبح صرخة متوترة مكتومة، حين مد لسانه يلعق أصابعها بلطف.

وفجأة، انطلقت صفرة قوية من مكان بعيد، استجاب لها الكلبان،

وأدارا ظهريهما إليها، ثم قفزا مبتعدين.

تنفست اوفيليا الصعداء بارتياح مرتجفة، كأن كابوساً قد انزاح عن صدرها، ثم حدقت إلى الطريق المؤدية الى الغابة الكثيفة التي ترخي ظلالاً من الظلمة على نهاية الطريق الملتوية، وإذا بشيء ما عبر الأشجار.. إنه شبح ضخم، يبدو كأنه يتقدم نحوها.

بعد لحظات، خرج من العتمة رجل على صهوة جواده.. الكلبان الضخمان يركضان على بعد ياردات معدودة منه.. وبدأت أوفيليا تسأل نفسها ما اذا كانت تحلم.. فمنذ دقائق كانت تتمنى ظهور فارس على جواد أبيض، يتقدم مسرعاً لينقذها. وها هو قد وصل! حسناً.. حتى لو كان الجواد رمادياً، وليس أبيض اللون... إنها تفاصيل غير مهمة بالنسبة إليها!

ثم أدركت أن القادم نحوها لا بد من أن يكون صاحب الكلبين، اللذين أوقعا الرعب في نفسها، فعلت تقطيبة سخط وجهها.. وسألت القادم:

ـ هل هذان الكلبان لك؟

نظر إليها الرجل من فوق الحصان، وكأنه لا ينوي التنازل والرد على سؤالها.. لكنها نظرت اليه ترد نظراته الباردة وسألته بغضب:

ـ هل هما لك؟

اجاب الفارس أخيراً بصوت بارد غير مكترث:

ـ إنهما «لكادوغان هال».

ـ لكنهما الآن معك؟

ـ هذا ما يبدو، بالتأكيد.. لكن ما شأنك في هذا؟

وقاحته، تركتها دون كلام تقريباً.. لكنها تابعت قائلة:

ـ ما شأني في هذا؟ خرجا إليّ واثبين من هذه الغابة و.. حاصراني.. إنهما حيوانان خطيران... ويجب ابقاؤهما مربوطين!

نظرته، كشفت اول دلائل حدة الطباع والنزق عنده.. عيناه باردتان مثل تصرفه معها، وسرعان ما سألها:

ـ هل آذاك الكلبان بأية طريقة؟

ـ حقاً.. لا!

ـ هل حاولا أن يعضاك؟ أو الوثوب عليك؟

غمغمت:

ـ لا أعتقد.

ـ اذن، ماذا فعلا لك بالضبط؟

ـ إنهما.. إنهما.. اقتربا مني... أحدهما.. لعق يدي.

حتى وهي تقول هذا، أدركت كم هي سخيفة في قولها فردّ الرجل بطريقة ساخرة:

ـ لا بد أن هذا أمر مرعب جداً.. كلب يلعق يدك!

ردت أوفيليا متلعثمة:

ـ كنت خائفة، ساعتها. كنت لوحدي، ولو هاجماني، لما استطعت فعل شيء.

قال الرجل بلهجة سئمة:

ـ لكنهما لم يهاجماك. فلماذا تفتعلين كل هذه الضجة حول شيء لم يحدث؟

لم تستطع أوفيليا تصديق اذنيها.. الرجل غير منطقي تماماً! فقالت بغضب:

ـ ما زلت أعتقد بوجوب ابقائهما تحت نوع من السيطرة.

بدأت ملامح فم الرجل تظهر السخط.. وبعد لحظة، استدار الى الكلبين، وصرخ زاجراً:

ـ بيوولف، بيوني.. اجلسا!

جلس الكلبان على الفور، فتابع الأمر:

ـ استلقيا.

فاستدارا إلى جانبيهما، وعيونهما شاخصة إليه، ينتظران بيقظة أوامر جديدة منه.

ـ قفا.. وانطلقا.

وقف الكلبان على الفور وقفزا جرياً نحو الاشجار وسرعان ما اختفيا عن الانظار.

استدار الرجل الى اوفيليا، وقال ساخراً:

ـ أيبدو لك أن هذين الكلبين لا يمكن السيطرة عليهما؟

قبل أن تتاح لها فرصة الرد، أدار الفارس عنق جواده في محاولة واضحة للجري وراء الكلبين، فصاحت الفتاة بخوف ظاهر:

ـ انتظر! اسمع.. كنت مخطئة فيما قلته حول الكلبين، وآسفة لكل هذا الضجيج.

رد الرجل بجفاء:

ـ اذا كان هذا اعتذاراً، فأنا اقبله.

فأجابت على الفور:

ـ ليس اعتذاراً بكل تأكيد... كنت أعترف أنني أخطأت وكنت محقة في خطأي. ألا يمكن نسيان أمرهما، ولنبدأ من جديد؟ الواقع أنني بحاجة إلى مساعدة.. سيارتي معطلة.

وجاء رده قاسياً:

ـ لست ميكانيكياً.

نظرت إليه اوفيليا بكراهية متوترة.. كانت أصلاً مستعدة للمراهنة، أنه لو كان ميكانيكياً عبقرياً، لما عرض أن ينظر إلى السيارة، فهو بدون شك لا يريد أن يلطخ يديه الأنيقتين. لكنها سألته:

ـ أليس من مكان هنا أستطيع فيه الحصول على مساعدة؟ مكان فيه هاتف، أستطيع استخدامه؟

إنها تكره أن تطلب منه إسداء أي جميل لها، على الرغم من أنها كانت يائسة من الوصول الى كادوغان هال.. وسمعته يجيب:

ـ أقرب منزل هو على بعد أميال من هنا، وليس لديهم هاتف.

فسألته بمنطق ساخر:

ـ إذن، ألديك أي اقتراح لما يمكن أن أفعل؟

لم تكن تتوقع أيّ ردّ منه، ومن الواضح أنه لا يهتم بها ولا بمشكلتها.

كانت واثقة من أنه سيدير عنان جواده وينطلق دون لفظ كلمة أخرى، لذلك أصابتها دهشة مؤكدة حين تنهد ثم نزل عن جواده وتقدم نحوها.

كان رجلاً أكثر طولاً مما تصورت، نحيلاً جداً، ويتحرك برشاقة، وكأنه رجل غامل. قسماته كانت متشددة، كأنما نادراً ما تسترخي. وعند اقترابه منها، استطاعت رؤية عينيه القاتمتين، وقد بدأتا تلمعان بنفاد الصبر... وكان لديها إحساس بأن هذا ليس مجرد رد فعل مؤقت لديه، بل حالة دائمة، ربما بسبب واقع أنه لا يجد ما يعجبه في حياته في الوقت الراهن.

حين وقف مطلاً أمامها، كانت تمرر لسانها على شفتيها باضطراب. لم تكن تتوقع لوجوده مثل هذه القوة، ووجدت نفسها تتمنى لو يعود إلى صهوة جواده، وهذه مسافة آمنة لها. ثم أجلست كتفيها، ورفعت رأسها، منزعجة من نفسها للطريقة الخرقاء التي تتصرف بها.. حسناً.. إنه فعلاً رجل غير عادي الجاذبية! لكن هذا لا يعني أن عليها الارتجاف لمجرد أن يدنو منها!

سألها بصوت حاد:

ـ إلى أين كنت تنوين الذهاب حين تعطلت سيارتك؟

ـ إلى كادوغان هال.

أثارت إجابتها دهشة في عينيه، ما لبثت أن اختفت فوراً وهو يقول:

ـ لكن القصر ليس مفتوحاً للزيارات العامة قبل نيسان.

ـ أعرف هذا.. وأنا لست في رحلة استكشاف. لدي موعد مع اللورد كادوغان، سيد القصر.. إنه يتوقع استقبالي عند الحادية عشرة، وهذا يعني أن امامي أقل من نصف ساعة لأصل...

لبّث الرجل عينيه القاتمتين فيها، متفرّساً، ثم قال:

ـ أنت قادمة من وكالة (المساعدة المكتبية)، إذن؟

ـ اجل.. ومن المهم جداً أن لا أتأخر...

تلاشى صوتها دهشة بعد أن وعت ما قال، وبادرته بالسؤال:

ـ كيف عرفت أنني قادمة من الوكالة؟ وحده اللورد كادوغان يعرف

أنني قادمة . .

صمتت أوفيليا فجأة، تنظر باستغراب الى الرجل الواقف أمامها، لتصل الى استنتاج سريع، لكنه واضح؛ ترجمته بسؤال صريح:

ـ أأنت اللورد كادوغان؟

ـ أجل، وهذا ما يجعلك السيدة التي أرسلت لي حتى الآن سكرتيرتين غير كفيتين للقيام بعمل سهل جداً.

ردت اوفيليا بسرعة:

ـ لم يشكُ أحد في كفاءة واحدة منهن من قبل!

ـ إذن، هل لك أن تتفضلي بتفسير سبب تركهما للعمل في وقت قصير؟

نسيت أوفيليا كل شيء حول الديبلوماسية واللباقة في التعامل مع هذا الرجل، فتنفست عميقاً، وشدت قامتها متحدية وأخذت تنظر إليه بشكل مباشر، ثم قالت:

ـ حين تحصل مشاكل كهذه، غالباً ما نجد أن تصرفات رب العمل هي الخاطئة، قبل أي شيء اخر!

بعد هنيهة من الصمت أحست أوفيليا بندم عميق على كل كلمة قالتها، لقد انطلقت هذا الصباح مع عزم ثابت، على أن تقنع اللورد كادوغان بأن وكالتها قادرة على تزويده بأي نوع من الموظفات يحتاج اليه، الآن وفي أي وقت من المستقبل. كما كانت مصممة على ان تكون قادرة، مؤهلة، لتنسيه أمر الفتاتين اللتين أرسلتهما اليه، بعد ثبات عدم قدرتهما على التعامل مع مطالب (صاحب السيادة) ومزاجيته غير الثابتة. ومع كل هذا، أخذت أوفيليا تتصرف بعكس ما عقدت العزم عليه، وتجادله، وتقول له إنه الملام على هرب الفتاتين من العمل معه. . . هذه ليست طريقة لبقة ذكية يا اوفيليا. . يبدو الآن أن اللورد والوكالة، سيقطعان كل علاقة بينهما.

لكن، لدهشتها، لم يبدُ عليه الغضب، بل قال:

ـ أنا مستعد للاعتراف أنني لست دائماً بالرجل المتعقل. . لكن، ما

الذي يجعلك تظنين نفسك قادرة على النجاح معي أكثر من الفتاتين اللتين أرسلتا إليّ من قبل؟

ـ لأنني لا أضطرب أو أرتبك امام الأزمات. ثم إنني بارعة جداً في التنظيم. وهذا اساساً ما أنت بحاجة اليه، أليس كذلك؟ إنك تريد فتاة ذات حنكة ولديها القدرة على إدارة قصر كادوغان؟

ـ هذا بالضبط ما أريده. وكما شرحت لك على الهاتف، المرأة التي كانت تدير لي الأمور، اضطرت إلى دخول المستشفى لإجراء عملية جراحية. لا شيء خطير، لكنها ستغيب ستة أسابيع. . والقصر سيفتح أبوابه للعامة في بداية شهر نيسان. وهناك كمية هائلة من الأعمال التنظيمية يجب انجازها قبل ذلك الموعد، فقصر كادوغان يشبه المؤسسة التجارية أكثر من كونه منزلاً فخماً. ونحن نستخدم عدداً كبيراً من الموظفين، لتصريف أعمال هذا القصر، ولا سيما في الموسم الذي يزداد فيه عدد زائريه، فأموره المالية معقدة، وستواجهين عدداً كبيراً من المشاكل لم تألفيها في شركات العمل العادية. فهل تظنين نفسك قادرة على القيام بعمل كهذا؟

هذا التحدي الجسور والسافر، جعل أوفيليا ترد بسخط:

ـ انا لست دون خبرة، فأنا من أسست الوكالة، وأديرها حالياً. وبوسعك أن تستدل على نجاحي المهني من خلال نجاح هذه الوكالة!

ارتفع حاجبه الأسود قليلاً، وعلق بخشونة:

ـ هذه مسألة وجهة نظر، فسجلك حتى الآن لم يكن مؤثراً بعمق بالنسبة إليّ. ومع ذلك، فليس أمامي خيار سوى أن أعطيك فرصة لإثبات مقدرتك الإدارية. فأنا بحاجة إلى من يبدأ العمل فوراً، ولا أستطيع تحمل إضاعة الوقت في إدراج إعلانات في الصحف المحلية، ثم المرور بمقابلات مطولة.

ـ لن تندم على هذا. أؤكد لك أنك ستجدني كفيّة وقادرة في كل شيء.

ازداد ارتفاع حاجبي الرجل، وهو يقول:

- في كل شيء؟ هذا حكم متسرع . . آنسة . . . ؟
- ليندن . . اوفيليا ليندن .

لكنها انزعجت لإحساسها بالاحمرار يتصاعد الى وجهها وأكمل بلطف :

- حسناً آنسة ليندن . . أقترح الآن أن نمضي في طريقنا إلى القصر ، ثم ستتاح لك فرصة إظهار مدى كفايتك الإدارية .

أطبقت اوفيليا فمها تماماً عن الرد ، فليس في نيتها أن تتركه يقودها الى رد فظ غاضب آخر . . ومع ذلك فقد كانت قد بدأت تفهم لماذا تركت الفتاتان العمل هنا . هناك شيء في هذا الرجل ، يتسلل تحت الجلد . . . شيء ما في صوته البارد الساخر الذي يحرّض على رد فعل عاصف مريك . أيفعل هذا متعمداً؟ لديها شعور أنه يتعمده ، وأنه يحس بنوع من التسلية في مراقبتها وهي تحاول السيطرة على غضبها .

التفتت أوفيليا الى سيارتها لتسأل :

- وكيف سأصل الى كادوغان هال؟ هل سترسل من يأخذني؟
- لا حاجة إلى هذا ، فالجواد قادر على إيصالنا معاً .

نظرت الى الجواد متوترة :

- لا أعرف ركوب الخيل .
- لست مضطرة إلى ذلك . كل ما عليك فعله هو الاستواء على ظهره وأن لا تتحركي كثيراً .
- وماذا عن حقائبي؟ إنها في صندوق السيارة .
- سأرسل من يسحب السيارة الى القصر . وقد نجد أحد الرجال قادراً على إصلاحها .

لم تشعر اوفيليا بالإثارة لطريقة إكمالها رحلتها الى كادوغان هال على ظهر جواد . لكن ، لا يبدو أن هناك طريقة أخرى . . فقد شد اللورد الجواد اليه ، وقفز بسهولة إلى ظهر الجواد ، ثم مد يده اليها . ولسبب ما ، ترددت كثيراً في أن تمسكها وهي تحس بقلق غريب . أخيراً تركته يمسك يدها . . لكن الاحساس لم يتحسن حين تشابكت أصابعه الطويلة الانيقة بقوة مع

أصابعها . . . ثم لم يعد من وقت للتفكير بهذا ، فقد بدأت قدمها تفتش في الهواء عن الركاب ، مع تسلق مذعور غير وقور لتصل إلى ظهر الجواد .

اخيراً ، استقرت . . لكنها جلست ، مع شعور رهيب بعدم الأمان . . فسألها اللورد بلهجة سأم :

- هل انت على ما يرام؟

حاولت الابتسام قائلة :

- تبدو الأرض على مسافة بعيدة .
- لن تقعي ، حتى ولو فقدت التوازن ، فسأتمكن من إيقاف وقوعك .

هذا صحيح ، فقد كانت ذراعاه على جانبيها ، تدعمانها بخفة ، بينما أصابعه تمسك اللجام ببراعة خبير . . . ما عليها سوى التراجع مدى إنش واحد ، لتلتصق بجسده القاسي النحيل . وهذا ما جعلها تحس . . . حسناً . . بأنها مطوّقة . . وأملت أن لا تطول المسافة كثيراً للوصول إلى القصر .

كان الجواد يعدو بسرعة ثابتة . . . وبعد دقائق . . قفز الكلبان من بين الأشجار ، ليجريا أمام الجواد . فسألته فجأة ، بعد إحساسها بحاجة إلى كسر الصمت :

- أي نوع من الكلاب هما؟

رد باختصار .

- من نوع الكلاب الذئبية الايرلندية .
- إنهما . . كبيران قليلاً . . أما كان بإمكانك تربية كلاب أصغر حجماً بقليل؟
- إنهما ليسا لي . . لقد قلت لك ، إنهما ملك للقصر .
- لكنك أنت سيد القصر ، اللورد كادوغان .
- لسوء الحظ . . أجل .

فنظرت إليه بدهشة وهي تقول :

- ألا تحب ان تكون اللورد؟
- يا إلهي . . ألا تكفين أبداً عن طرح الأسئلة؟

ردت مجفلة، وبسخط:

ـ آسفة.

ثم حافظت على صمت وقور غاضب.

مضى الجواد في طريقه عبر الحقول، ومن خلال الاشجار.. ثم سار فوق طريق مهجورة إلى أن وصل إلى مدخل واسع له بوابة حديدية مزخرفة أنيقة كبيرة.. دون أي توجيه من الرجل الذي سلك بالجواد طريقاً طويلة تحف بها أشجار مرتفعة.. الجواد يعرف تماماً إلى أين يذهب. وأملت اوفيليا أن لا يطول الوقت أكثر، فقد بدأت تحس بالتصلب والألم في اكثر من مكان غير مريح من جسدها.

بعد منعطف واحد، وصل الجميع إلى فسحة عريضة دائرية تحف بها مروج واسعة، وأحست اوفيليا باتساع عينيها دهشة.

كانت تعرف أن قصر كادوغان هو أكبر قصور المنطقة كلها، لكنها لم تكن لتدري كم هو فعلاً كبير، ومثير للإعجاب.. حتى في صباح معتم كئيب من ايام شهر شباط الكثيف الغيوم، بدت لها الزخرفة الحجرية تلمع وكأنها الذهب.. الأبراج والقباب، كانت تنعكس سوداء امام السماء الرمادية القاتمة، بطريقة رومانسية غير متوقعة. لا بد من أن هذا المنظر، وفي طقس مشمس، سيبدو فخماً رائعاً، وممّا لا شك فيه أن الحياة في مكان كهذا هي امر رائع.

كانت تتطلع حولها برهبة الإعجاب حين توقف الجواد أمام المدخل. وترجل اللورد، ثم تمكن، بعد جهد، من إعادتها الى الارض. وبرز رجل ليقود الجواد بعيداً، الى الاسطبل، كما هو واضح، في مكان ما خلف القصر، بينما سار اللورد نحو المدخل المزخرف بقناطر توصل إلى المنزل.

الوصول إلى المنزل لم يضعه في مزاج أفضل.. بل كان الأمر على العكس تماماً، فقد احست اوفيليا بمزاج اسود ينبعث منه وهو يصعد درجات السلم المرتفعة ثم يدفع الباب الخشبي الثقيل المنقوش، ولم تستطع فهم سبب هذا المزاج.. هل هذا بسبب شيء قالته أو فعلته؟

حسنا.. لا بد أنه توتر من كلماتها اللاذعة، إلاّ أنه بدا مرتاحاً لمجرد أن صمتت.. ولكن هل يمكن لشيء آخر أن يتسبب بتعكير مزاجه مجدداً؟ ثم ما سرّ هذا المزاج الذي ظهر منه في هذه الدقائق الاخيرة، وهما يقتربان من القصر.. أيمكن أن يكون السبب هو المنزل نفسه؟ فمعظم الناس قد يصابون بالاهتياج والسعادة لمجرد وصولهم الى منزل مثل كادوغان هال.

لحقت أوفيليا باللورد، وملامح الحيرة ترتسم على قسمات وجهها، وبعد عبور المدخل، وجدت نفسها تتوقف في ردهة واسعة. تمثالان ضخمان يقفان على جانبي المدخل، وفي نهاية الردهة طاولة خشبية ثقيلة، فوقها إناء يحتوي على أزهار مجففة، كانت تعطي لمحة لون اخرس تجاه الكسوة الخشبية الجدارية خلفها. وكان اللورد قد بدأ بالتقدم الى الأمام، عبر مدخل مقنطر، فأسرعت خلفه.

ما هي إلا لحظات حتى وقفت مجدداً، مسمّرة، تحبس أنفاسها، فقد دخلا الآن الى القاعة الكبيرة حيث تقوم نوافذ ناتئة (مشربيات) مضاءة بأنوار ساطعة. السقف المرتفع فوق رأسها مزيّن بألواح خشبية مطلية ومصفوفة بين ألواح خشبية أخرى قاتمة، سجف ضخمة تنير الواح الخشب المصقول التي تغطي الجدران من الارض حتى السقف. طاولات من البلوط والسنديان الثقيل، مصفوفة تجاه جدار واحد، تحيط بها دزينة او ما يزيد من الكراسي ذات المقاعد المصقولة اللماعة والظهور المستوية الصلبة. وفي الطرف الأبعد، موقد ضخم، يحتضن عدة عيدان ضخمة من الحطب.. جاهزة للاشتعال.

بينما كانت اوفيليا لا تزال تحدق بكل هذا الجمال انفتح باب من طرف القاعة ليدخل رجل رمادي الشعر ويسأل:

ـ هل كانت نزهتك ممتعة سيدي اللورد؟

رد اللورد بصوت حازم:

ـ أجل..

نظر الرجل الى أوفيليا وسأل مجدداً:

ـ هل ستبقى السيدة الشابة لتناول الغداء سيدي؟

- اجل . . ستبقى . قدم لنا الغداء في المكتبة . . ستعمل هناك خلال النهار . .

- بكل تأكيد سيدي اللورد . اهناك شيء آخر؟

- لا . . شكراً لك .

كلمة الشكر بدت وكأنها مقحمة في الحديث بعد طول تفكير، حتى أن شعر بشرة اوفيليا تصلب . . قد يكون للورد كادوغان نزعة ارستقراطية تمتد لقرون ولت، لكن من المؤسف أن ما من أحد علمه قواعد حسن السلوك! وغادر الرجل الفضي الشعر، فاستدارت اوفيليا لتواجه اللورد وتسأله :

- أهو أحد الموظفين الدائمين هنا؟

- إنه الخادم الخاص .

ردت أوفيليا دون تصديق :

- الخادم الخاص؟ ما كنت لأظن أن أحداً ما زال عنده خادم خاص هذه الأيام .

- ماكومبر يعمل للعائلة منذ سنوات .

- أما كان يجب ان تقدمني . . للسيد ماكومبر؟

- إذا بقيت هنا، فسيكون لك طرق كثيرة للتعرف اليه فيما بعد، ثم ناده بكل بساطة (ماكومبر) .

- لكن هذا لا يبدو أدباً .

برقت عيناه بتسلية ساخرة :

- مع ذلك، فهذه هي الطريقة الصحيحة لمخاطبة الخادم الخاص . . وسيشعر بالإهانة لو ناديته باسم آخر .

برزت امامها فجأة مشكلة اخرى، لم تكن قد فكرت بها :

- في هذه الحالة . . بماذا أدعوك؟ هل يناسب (اللورد كادوغان)؟

- اسمي دانيال ثورب .

لكن هذا لم يحل مشكلة اوفيليا الداخلة الى عالم مجهول، فسألت بحذر :

- ماذا تقول؟ هل اناديك بالسيد ثورب؟

استطاعت رؤية نفاد الصبر في عينيه، وتساءلت ما الذي قالته لتثيره؟

- ما خطب اسم دانيال؟

رده أذهلها لحظة . كان آخر شيء توقعته . . لقد كان لها منذ رأته لانطباع بأنه رجل يحب ان يبقي على مسافة بينه وبين الناس . ومع ذلك، ما هو، يقترح عليها ان تناديه باسمه الاول .

اخيراً ردت أوفيليا بتردد :

- لا يبدو لي هذا مناسباً .

ظهرت ابتسامة توبيخ ساخر على زوايا فم دانيال، ثم قال ساخراً بلطف :

- أليس محترما بما يكفي؟ أهو اسم غير رسمي لأحد افراد الطبقة الارستقراطية؟ أتشعرين بالخوف مني آنسة اوفيليا ليندن؟ أترغبين في الانحناء، ورد القدم الى الوراء أمامي؟ أن تناديني بلقبي؟ وأن يبدو عليك الادب والاحترام كلما تنازلت وتحدثت اليك؟

وسرعان ما ردّت أوفيليا بشكل فوري وغريزي :

- بالطبع لا . .

أدهشها أن ردها أعجبه، فقال متحدياً بصوت منخفض :

- إذن بماذا ستناديني؟

- حسناً . . دانيال، كما أعتقد . . اذا كان هذا حقاً ما تريد .

- وأنا سأناديك فيلي . إذا لم تعترضي، طبعاً .

- لا . . ليس لي اعتراض .

- اوفيليا اسم قديم الطراز، فهل أنت فتاة قديمة الطراز؟

- بأية طريقة؟

- وكم هناك من طريقة! . . لا بأس . . لا أتوقع منك رداً على هذا . لكن ما أقوله إنك ستتأقلمين هنا أكثر لو تركتِ القرن العشرين وراءك كلما دخلت أبواب هذه الأملاك . . فنحن لا نبعد سوى ساعة عن لندن، ومع ذلك فالحياة هنا تبدو وكأنها من عالم آخر . . . وأنا فعلاً السيد الحاكم

(اللورد) لكل شيء.. الناس يعاملونني باحترام، حتى أنني أجد صعوبة في الحديث العادي معهم. بعض عمال الأملاك القدامى، يخلعون قبعاتهم حين يروننني.

ـ إذن، لماذا لا تقول لهم أن لا يفعلوا ذلك؟

ارتفع حاجباه بتأثر:

ـ أتظنين فعلاً أنهم لن يفعلوا؟ آه... ربما الجيل الأصغر قد يفعل... لكن لا وجود لصغار السن هنا.. المكان هادىء جداً بالنسبة إليهم، والراحة التي نوفرها لهم تصرف اهتماماتهم عن البحث عن عمل آخر خارج هذا القصر... ومن يلومهم؟ مما يجعلهم يتميزون بارتفاع أعمارهم، ومعظمهم يعمل لعائلتي طوال حياته، بطريقة او بأخرى. وكذلك فعل آباؤهم وأجدادهم، وأجداد أجدادهم... لهم تاريخ طويل في خدمة عائلة ثورب، حتى يمكن أن يكونوا الآن مدموغين بهذا التاريخ، ولن يستطيع أي شيء انتزاع هذا الولاء من قرارة نفوسهم.

ظنت اوفيليا أنه ربما يبالغ في كلامه. ولم تكن خائفة من قول هذا:

ـ بكل تأكيد مثل هذا التصرف لم يعد موجوداً الآن؟ ربما بعض العجائز ما يزال يعيش في الماضي قليلاً، لكنني لا أصدق أن الجميع هنا يعاملك كسيد إقطاعي.

ـ ألا تصدقين؟ ابقي هنا قليلاً وسترين ذلك بنفسك..

تهلّل وجهه قليلاً وأكمل:

ـ لكن، لدي إحساس أنك ستكونين أقل احتراماً، وبشكل مناسب. وأظن أنني أتطلع قدماً إلى هذا آنسة اوفيليا ليندن.

نظر دانيال ثورب الى ساعته، ثم أكمل:

ـ الغداء لن يقدّم قبل ساعة من الآن. ربما من الأفضل أن آخذك في جولة على القصر، لمساعدتك على فهم مسؤولياتك.. فمن السهل ان تضيعي في مكان بهذا الحجم.

تأوهت اوفيليا بصمت.. كانت مؤخرتها لا تزال تؤلمها من اللقاء غير المتوقع مع ظهر الجواد.. وسألت:

ـ كم غرفة هناك؟

ـ حوالي الخمس والتسعين، ربما أكثر أو أقل بغرفة أو اثنتين.

فغرت فمها دهشة، ورددت:

ـ لديك خمس وتسعون!

دون توقع، ابتسم. فأخذت معدة اوفيليا تتقلص وتتراقص.. لم تكن متحضرة لشحنة السحر هذه.. ولا لردة فعل أعصابها لها... وأجفلت حذراً على الفور، لا شيء في دانيال ثورب هو تماماً ما كان يبدو لها، ولديها إحساس مزعج أنها قادرة على كشف طبقة وراء طبقة من شخصيته، دون أن تتمكن من الوصول إلى الجوهر، حيث الرجل الحقيقي.

وهي تلحق به، وهو يغادر القاعة الكبرى.. كانت تحس بارتجاف خفيف، وبارتباك متوتر، في مكان ما داخل معدتها.

* * *

٢ ـ محكومة لستة أسابيع

ما إن حلّت فترة ما بعد الظهر، حتى كانت اوفيليا تجلس وراء طاولة في المكتبة، تحاول ضبط الفوضى التي تحيط بها فحولها فواتير وإيصالات كانت مكومة دونما ترتيب في صينية وهرم من الرسائل التي تنتظر أن تفتح ويتم الردّ عليها. أما دفاتر المحاسبة، فقد كانت في فوضى كاملة. وكأنما مساعدة دانيال ثورب كانت غائبة منذ أسابيع، وليس فقط لبضعة أيام، ولم تستطع فيلي إلا أن تظن ربما، بأن المرأة ليست كفية لإدارة مكتب حتى وهي تقيم هنا.

على طاولتها هاتفان، أحدهما داخلي والآخر خارجي مباشر، وتمنت أن لا يرن واحد منهما قبل أن تعرف موطىء قدميها. وبتقدم الوقت، أحست بالراحة لبقائهما صامتين.

في المساء، كانت كل الأوراق المتناثرة بشكل فوضوي قد أصبحت مرتبة ومنضّدة داخل الملفات، والتي رفقتها فيما بعد بالترتيب حسب أهميتها. لكن على الحسابات ان تنتظر الى الغد.. فهي ليست صانعة معجزات!

ما إن أصبح لديها بضع دقائق لنفسها حتى نظرت باشتياق الى الهاتف.. كانت تتوق الى استخدامه طوال ما بعد الظهر، ولم تتمكن من مقاومة الاغراء بعد. فالتقطته، وبسرعة أدارت الرقم الذي تعرفه عن ظهر قلب.

مضت بضع دقائق قبل أن ترد أمها.. وحتى ذلك الوقت كانت أصابع فيلي تدق بتوتر خفيف وأذناها مشدودتان الى السماعة.. وما إن سمعت

الصوت المألوف من جانبها حتى قالت:

ـ مرحبا أمي.. هذه أنا. أتصل بك لأطمئن إلى أن كل شيء يسير على ما يرام.

ردت الأم بصبر:

ـ فيلي.. لم تغيبي أكثر من ساعات، فماذا يمكن أن يحدث؟

ـ لا شيء، على ما أعتقد. لكنني.. فقط.. اوّاه.. لم أستطع إلا أن أقلق. كيف حال عصفوريّ ـ تويلدوم وتويلدي؟

ـ بخير تام. يأكلان جيداً، وهما الآن نائمان.. كيف حال الوظيفة؟

كشّرت فيلي وهيّ تقول:

ـ لن تكون سهلة بكل تأكيد.. يبدو أن الأمور في فوضى عارمة هنا.. وستمر أيام قبل تسوية كل الأمور.

ـ أتظنين نفسك قادرة على البقاء ستة أسابيع؟ لن تتركي اللورد كادوغان بكل تأكيد كما فعلت الفتاتان اللتان ارسلتهما إليه؟

ـ قد اتعرض للإغراء، لكنني مصممة على أن لا استسلم، فأنا بحاجة إلى أن اترك انطباعاً جيداً لديه.. وستكون أطول ستة أسابيع في حياتي.. وما زلت غير واثقة مما اذا كان يجب أن أجيء بنفسي.

ـ لا تكون سخيفة فيلي.. تويلدوم وتويلدي بخير معي. وبمثل وضعك المالي الحالي، لا يمكنك تحمل المخاطرة.. كل «بنس» كان معك مُستثمر في الوكالة.

ـ لا تذكريني بهذا.. لو فشلت الوكالة سأقع في مشاكل حقيقية.

ـ إذن، انسي كل شيء آخر، وركزي اهتمامك على النجاح في مهمتك.

ـ كيف أنسى تويلدوم وتويلدي فلذتي كبدي؟

ـ الأمر صعب حقاً. لكن حاولي التفكير بهما خارج دوام ساعات العمل. وبامكانك الاتصال في أي وقت تشائين.. أنا دائماً هنا. وليكن لك الثقة بأنهما في رعاية أيد أمينة، أشد حرصاً عليهما منك.

ـ شكراً أمي.. تعلمين كم أنا ممتنة لك... لكل شيء، الافضل أن

اذهب الآن، فلا اعتقد أن ردة فعل اللورد ستكون إيجابية فيما لو عرف أنني أستخدم هاتفه لمكالمات خاصة.

ـ وداعاً يا فيلي، وتذكري.. لا تقلقي. حاولي فقط أن تعطي الانطباع الجيد، كي يتحدث اللورد عن سمعتك الطيبة أمام أصدقائه.

ببطء أرجعت اوفيليا السماعة إلى مكانها.. تويلدوم وتويلدي هما الاسمان المستعاران اللذان اطلقتهما على ابنيها التوأمين منذ كانا طفلين. ولسبب محدد جداً، التصق بهما الاسمان مع أنهما الآن في الثانية من عمرهما.. كانت تكره أن تتركهما، لكن عليها أن تعمل لتعيلهما.. فهذه هي المشكلة القديمة للأم الوحيدة، وشكراً للسماء أن لديها أمها لتوفر لهما المساعدة ومنزلاً ثابتاً مريحاً، في الأوقات التي لا تكون فيها إلى جانبهما بفعل ضرورات العمل.

صوت، أصبح مألوفاً لها، قاطع تفكيرها الحائر فجأة، إنه صوت اللورد الذي وجدته يتنصب أمامها، ويقول غاضباً:

ـ أتنوين استخدام هاتفي كثيراً لمكالمات خاصة وأنت تعملين لي؟

بسرعة استدارت فيلي. كان دانيال ثورب يقف في الباب وعيناه الباردتان المصوبتان إليها توحيان بإشارات عدم الرضى بوضوح. فردت متوترة:

ـ سأدفع ثمن المكالمة طبعاً.. كنت بحاجة إلى.. الاتصال بأمي كي.. تعرف أنني وصلت سالمة.

لم تكن تعترف لأحد خصوصاً لرب عمل، أن لها ولدين صغيرين، ليس لأنها تخجل من هذا، بكل تأكيد. بل ذلك لأنها قد تعلمت بالخبرة أن هناك بقية من تحامل مجحف ضد الأم العاملة. والناس غالباً ما يرفضون استخدام من هي في هذا الوضع، لأنهم يعتقدون أنها لن تكون كفية. وهكذا كانت تستخدم اسمين مستعارين لولديها حين تعمل.

تقدم دانيال الى داخل الغرفة، وسأل ببساطة:

ـ ومن هما تويلدوم وتويلدي؟ لقد ظهرت شديدة القلق عليهما!

اخذت تتطلع حولها طلباً للإلهام، ثم لفت نظرها الكلبان الضخمان

للذان لحقا بدانيال الى الغرفة، آلمها جداً أن يكون اللورد قد استرق السمع إلى تفاصيل المكالمة التي أجرتها مع أمها، فتوجهت الى اللورد قائلة:

ـ للجميع الحق في حيازة حيوانات مدللة.. اليس كذلك؟ على اي حال، لديك بيوولف وبيوتي.

ـ إنهما ليسا لي، ورثتهما مع القصر ولدي انطباع انك لا تحبين الكلاب كثيراً، وأنهما أخافاك. بكل تأكيد، أثرت ضجيجاً كبيراً حين قابلتيهما أول مرة.

ـ هذا لأنهما ضخمان جداً.

ـ إذن ما هما تويلدوم وتويلدي؟ أهما كلبان صغيران يجلسان في حجرك؟

ـ بكل تأكيد هما جديران بالدلال، وما زالا صغيرين جداً. إنهما بحاجة الى الكثير من الرعاية والاهتمام.. ولهذا تهتم بهما أمي.

ثم تابع حديثه، وقد بدت معالم السخرية لا الشك في عينيه:

ـ وهل تنوين الاتصال يومياً لتسألي عنهما؟

ـ بالطبع لا.. لكنني سأقدر لك أن تسمح لي باستخدام الهاتف بين حين وآخر. فعدا عن أي شيء آخر، أنا مضطرة إلى السؤال عن سير العمل في الوكالة، وإلى التأكد من عدم وجود مشاكل رئيسية. وكما قلت، سأدفع بدل المكالمات. وان كنت لا توافق على هذا، أخبرني أين أجد هاتفاً عمومياً قريباً استطيع استخدامه لهذا الغرض؟

هز دانيال كتفيه بسرعة، وكأنه سئم فجأة من الحديث:

ـ استخدمي الهاتف كما تشائين.. ولا تقلقي حول الدفع.. فأنا مدين بالكثير من المال حتى الآن، وبضع جنيهات إضافية لن تهم.

ـ انت مدين؟ آه.. آسفة، هذا سؤال شخصي.

ـ أجل، إنه كذلك. لكن الأمر لا يهم.. فلو فكر أحد بأموري جيداً، لأدرك سريعاً أن مركزي المالي لا يمكن أن يكون سوياً. أتعرفين كم هي كلفة إدارة مكان كهذا؟

ـ لا.. لكن من نظرتي الأولية الى بعض الفواتير والايصالات على

الطاولة وجدتها ضخمة لا تصدق.

ـ هذه الفواتير ما هي إلا رأس جبل الجليد.. وعدا عن هذا، لديّ.. مشاكل أخرى.

ـ مثل ماذا؟

أطرق لحظة فظنته سيوافيها بالحقيقة، لكنه استدار عنها، وبدأ يحك رأس أحد الكلبين بعنف ويقول:

ـ هذا أمر لا يهمك. ولن تبقي هنا مدة تكفي لتتورطي بأي شيء منها.

لكن اوفيليا لم تكن تصغي اليه تماماً.. بل كانت تراقب بذهول أصابعه وهي تتحرك فوق فروة الكلب الرمادية.. والكلب يبدو سعيداً.. واضح أن هذا اهتمام نادر الحدوث. ولدهشتها، واضطرابها، وجدت نفسها تتساءل عن شعور من يتلقى مثل هذه الدعابات البسيطة، الجالبة للسعادة. ثم أخذت تخاطب نفسها.. لا تكوني سخيفة!.. لا فائدة من الولوج الى مثل هذا النوع من احلام اليقظة، لقد أتيت الى هنا مصممة على أن تكوني عملية وكفية، وهذا بالضبط ما يجب أن تعيريه كل اهتمامك، ثم أشارت الى الملفات أمامها وهي تسأل:

ـ بماذا تريدني أن أبدأ أولاً؟ هناك الكثير من الرسائل المتأخرة.. مع أنني بحاجة إلى مساعدتك في الإجابة على معظمها.. وهناك حسابات عديدة ليست مكتملة..

ـ أنت فعلاً فتاة قديمة الطراز. وإلا لكنت أقل أدباً. لقد قلت لي ببساطة إنها في فوضى تشابه فوضى الجحيم.

ـ حسناً.. صحيح.. إنها كذلك.

ـ غونيت بارسونز، المرأة التي تعملين بدلاً منها الآن سيدة فاتنة.. وسكرتيرة كفية بطرق كثيرة.. لكن لسوء الحظ، الحسابات تبدو دائماً لغزاً مغلقاً لها، ولم أستطع ان أجعلها، وآخرين معها، تفهم أن النتائج ستكون وخيمة جداً، إذا لم نوازن المدخول مع المصروف.

ـ إذن، سأهتم بالحسابات اولاً في الصباح.

ـ جيد.. هل أنت جائعة؟

ـ أتضور جوعاً.

ـ ماكومبر سيأتيك بالطعام بعد دقائق.

أحست أوفيليا بخيبة أمل.. فهي لا تحب أن تأكل وحدها. وكانت تأمل ان ينضم اليها دانيال في وجبة المساء... لكن هذا أمل جريء منها.. فسيد العزبة، اللورد لا يتنازل ليأكل مع خدمه الوضيعي القدر!

وتابع دانيال يقول:

ـ على فكرة.. أنتظر مكالمة هامة هذا المساء، وأود أن تبقي هنا بانتظارها. حين تأتي، اخبري ماكومبر.. وسيخبرني بدوره.

رفعت نظرها اليه وأجواء عبوس خفيف تحوم على وجهها.. لقد أرهقت نفسها بالعمل بعد الظهر، وهذا أول يوم لها هنا. وكانت تخطط لتفرغ حقائبها بعد الظهر، ثم تستريح طويلاً وهي تغرق جسدها في حمام ساخن...

واضح أنه لاحظ تغير ملامح وجهها، فقد تحول وجهه الى برود مفاجيء وقال يذكرها:

ـ حين اتصلت بوكالتك، قلت لك إنني بحاجة الى من يكون حاضراً للعمل اربعاً وعشرين ساعة في اليوم. في الواقع كل الموظفين الدائمين هنا يعملون على هذا الأساس.. فهذا ليس كمكتب عمل عادي، ولا نلتزم بالروتين المألوف لثمانية ساعات في ضبط دوامه.. إننا نعمل في ساعات غريبة، ونرتاح متى نستطيع، وعلى فترات غير منتظمة. لهذا أطلب من هو مستعد للسكن هنا.

ـ أجل.. أفهم هذا. وليس لدي اعتراض على العمل هذا المساء.

ـ لن تعملي.. ستنتظرين فقط مكالمة هاتفية، وتستطيعين فعل ما تشائين. وأثناء الانتظار، اقرأي، طرزي، اجلسي وقلبي اصابعك... لكن لا تنامي، وتذكري انك ترغبين في اعطائي الانطباع الجيد.

اتسعت عيناها بشدّة.. لقد سمع من مكالمتها لأمها أكثر مما ظن! وبسرعة، حاولت ان تتذكر ما قالته بالضبط.. ثم استراحت ببطء.. لن يهتم.. ولا يبدو عليه الاهتمام. إنه فقط يستشهد بكلامها. كل ما يريده

حقاً ان تقوم بعملها. . وهي متأكدة أنها ستفعل هذا دون مشاكل.

لقد جاءها ماكومبر بالطعام على عربة خاصة، بعد قليل من خروج دانيال. ثم غادر المكان فوراً، دون أكثر من انحناءة أدب. بعد أن تناولت الطعام، نهضت تتجول في المكتبة وهي تتساءل كم ستنتظر قبل وصول المكالمة. قلبت بعض الكتب دون اهتمام لأن معظمها كان يبدو أن عمره قروناً طويلة، ولم تجرؤ على لمسها خشية ان تتلف نسخاً نادرة ثمينة منها. فلديها بضع قصص حديثة في حقيبتها، لكن، ليس لديها فكرة اين تجدها الآن. فما من أحد حتى الآن ارشدها الى موقع غرفة نومها التي ستستخدمها خلال إقامتها في القصر. لكن، مع وجود خمس وتسعين غرفة، لن تجد مشكلة في اختيار مكان ملائم ومريح تنام فيه!

كانت الساعة تقارب التاسعة مساءً حين رن جرس الهاتف أخيراً وفور التقاط السماعة، سألها صوت ناعم وخافت عن اللورد كادوغان فطلبت من السائل الانتظار وذهبت تخبر ماكومبر.

لم يطل بها الوقت لتجده. . كان يقف في نهاية الممر يتجول حائراً، تقف وراءه تماماً امرأة طويلة نحيلة، تبدو مرتبكة مثله. كان واضحاً أن هناك ثمّة امراً غير خطير قد حدث. . فهناك عدة قطع من إناء مكسور منتشرة فوق الأرض، ونرجس برّي مبكر مبعثر حولها، وبقعة ماء كبيرة تنتشر فوق سطح طاولة تبدو ثمينة جداً، وتسيل فوق سجادة نفيسة تفوق الطاولة ثمناً. وإلى جانب كل هذا كان احد الكلبين واقفاً، يتفرج على كل هذه الفوضى دون أن يبدو عليه الخجل أو عقدة الذنب، ولم يكن لدى فيلي فكرة أكان هذا بيوولف ام بيوتي. لكن، من النظرة إلى وجه ماكومبر، بدا جلياً أنه لم يكن يحب الكلاب. ولو ترك الامر له، لوجد الكلبان نفسيهما في وجار خاص بهما في الخارج، والمنزل محرّم الدخول عليهما.

قالت فيلي مترددة:

ـ آه. . عذراً. . هناك مكالمة هاتفية. . .

كادت أن تقول هذه المكالمة لدانيال. . . ولكن خشيت من ردة فعل

ماكومبر الذي لا يوافق على وجود الكلبين داخل المنزل. . فهو بكل تأكيد لن يقبل أن يلفظ اسم سيده غير مقرون بلقبه الرسمي وأكملت:

ـ مكالمة هاتفية للورد كادوغان. أتعلم أين أجده؟

رفع ماكومبر رأسه، يبدو عليه الضيق، وأشار الى نهاية الممر:

ـ إنه هناك. اصعدي هذه السلالم، ثم اقرعي ثاني باب يقع الى يمينك.

استدارت فيلي متجهة إلى حيث أشار. لقد قال دانيال لها، أن ترسل ماكومبر ليستدعيه، لكن ماكومبر عنده مشاكل ضاغطة يتعامل معها الآن. وبدا واضحاً أن احد الأمور التي تكدر مزاج الرجل الهادىء الوقور، هو إتلاف أي شيء ثمين في القصر.

وجدت نفسها، بعد صعود السلم، في رواق طويل، يبدو أنه يمتد تقريباً حول محيط البيت كله. كانت اللوحات معلقة فوق جدار واحد، بينما تحتل النوافذ الطويلة الجانب الآخر من الرواق، وتشرف على منظر رائع الجمال من الحدائق التي تلتمع تحت ضوء النهار. لكن، لم يكن لديها وقت للوقوف وإبداء الاعجاب بشيء. قرعت الباب التالي بخشونة، فخرج دانيال فوراً وسألها باختصار:

ـ مكالمتي؟

وما إن انهت أوفيليا هز رأسها بالإيجاب حتى كان قد انطلق، يسير بسرعة عبر الرواق. فتمتمت لنفسها (لا بد أنها مكالمة مهمة!). أوشكت أن تلحق به، حين لاحظت أنه ترك الباب نصف مفتوح. . وبخجل شديد للطريقة التي تتطفل بها، وما تحس به من فضول، ادخلت رأسها تنظر خلف الباب.

ارتفع حاجباها فوراً بالذهول: الغرفة كانت واسعة رحبة، لها نوافذ طويلة على أحد جوانبها، وهي خالية تقريباً من أي أثاث. ولم يكن هذا عجيباً. . فالغرفة كانت تبدو كمشغل رسم فني. . قماش الرسم كان يستند الى جدارين وهناك حمّالة رسم قرب النافذة، وطاولة طويلة، مغطاة بالفراشي، وأنابيب التلوين، ورقع قماش ملونة بمختلف الالوان،

وقوارير زجاجية مليئة بسوائل مختلفة.

نظرت أوفيليا حولها بسخط، وتمتمت:

ـ إذن، هكذا يقضي دانيال ثورب وقته.. لو أنه يتوقف عن اللعب بعلب التلوين ويهتم أكثر بإدارة أملاكه.. لما كانت احواله المادية في مثل هذه الفوضى.

أزعجها تركه لها تجلس ساعات في المكتبة، تنتظر مكالمة هاتفية له، كي يكون له الوقت الكافي ليمضيه في هوايته، ثم عادت تهبط السلم متصلبة. لكنها في آخر لحظة تذكرت أن إطلاق جموح أعصابها ليس بالفكرة الجيدة. فقد يكون دانيال ثورب رجلاً يثير الاضطراب بطرق عديدة، لكنه من الاهمية بحيث لا يجب ابداً ان تفعل شيئاً يزعجه.

ما إن عادت لتدخل المكتبة حتى كان دانيال يعيد لتوه السماعة إلى مكانها، وهو يستدير ليواجهها، وعندما لمحته لاحظت أنه يبدو راضياً. وكأنما المكالمة جاءته باخبار سارة، لكنها شخصياً لا تأبه لهذا الأمر فكل ما تريده الآن هو الاستغراق في نوم ليل هادىء.

فسألته بأدب:

ـ أتظن أن احداً يمكنه أن يدلني على غرفتي؟ هذا إذا لم تكن تحتاج إلى أن افعل لك شيئاً بعد الليلة؟

عيناه السوداوان لمعتا بسخرية وقال:

ـ وماذا يحدث لو قلت لك إنني اريدك للعمل بضع ساعات اخرى، آنسة اوفيليا ليندن؟

ردت متصلبة:

ـ سأفعل، أنت رب عملي، ولك الحق في أن تطلب مني فعل ما تريد.

تمتم دانيال ثورب، وبطريقة ما تمكن من أن يضع معاني وفيرة فيما يقول:

ـ كم انت فتاة مطيعة!

استدارت فيلي عنه قليلاً خشية من أن يرى بقع الغضب الحمراء على

خديها.. وسألت بسخط:

ـ أتريدني أن اعمل المزيد الليلة؟

لراحتها قال:

ـ لا.. لا أظن هذا.. ربما يجب أن اسمح لك بأن تأخذي قسطاً من «نوم الحسن» مع أنك لا تحتاجين إليه.. فمن الصعب أن يزيد شيئاً على حسنك.

ملاحظته الفجائية أجفلتها.. ماذا يعني بحق السماء؟ صحيح أنها ليست بشعة، لكنها لم تعتبر وجهها يوماً مميزاً. لها عينان بنيتان كبيرتان، وأنف انيق، وفم عادي، كل هذا يحيط به إطار من الشعر الماهوغوني، الاحمر البني، المسترسل بعناد وباستقامة ولمعان حتى كتفيها.

نظرت إليه بقلق، لكنه كان يتحرك نحو الباب، وكأنه نسي كل شيء مما قاله. ثم التفت اليها، ورفع حاجبيه متسائلاً:

ـ ظننتك ترغبين في ان يدلك أحد على غرفتك؟

تمتمت، وهي تتمنى أن لا تكون له هذه القدرة على اثارة ارتباكها.

ـ آه.. اجل..

خارج الباب، كان الكلبان ينتظرانه بصبر، ولحقا به بهدوء، ولحقت بهم اوفيليا، الثالثة في الترتيب... سيد المنزل وأتباعه المخلصين!

قادها دانيال الى سلم عريض، ثم الى ممر بدا لها أنه يصل الى الجهة الخلفية من القصر، وأخيراً توقف ليقول لها:

ـ تدبرت أمر إرسال حقائبك إلى هنا الليلة.. فإذا لم تحسي بالارتياح، قولي هذا للسيدة ماكومبر في الصباح. هناك بضع عشرات اخرى من غرف النوم بامكانك اختيار واحدة من بينها، اذا رغبت في تغيير غرفتك.

ـ السيدة ماكومبر؟ هل هي امرأة طويلة نحيلة؟

ـ أجل، إنها زوجة ماكومبر، طبعاً. وهي الطاهية كذلك. وعموماً، المسؤولة عن كل الموظفين في المنزل.

ـ شاهدتها قبل قليل.. هناك.. حسناً.. حادث بسيط حصل لإناء

أزهار. . كانت تساعد ماكومبر في التنظيف.

استدار دانيال على الفور عابساً وصرخ بالكلبين:

ـ من منكما المسؤول؟

حدق إليه الكلبان، فميهما مفتوحان وكأنهما يبتسمان ببراءة، وذيلاهما يتحركان بسعادة، مسروران بحصولهما على اهتمامه. . وتمتم غاضباً:

ـ كلبان لعينان غبيان. . . ماكومبر يقود حملة منظمة جداً لاخراجهما من المنزل، وهما مستمران في توفير الذرائع له. أقسم أنهما يفعلان هذا عمداً. إنهما يلهوان بسعادة لمعرفة كم يستطيعان الاندفاع في حظهما.

نظر دانيال الى الكلبين بعبوس شديد، ثم أدار لهما ظهره وفتح الباب أمامه، قائلاً:

ـ هذه غرفتك. . . الحمام على بعد بابين الى اليسار. اراك في الصباح.

ابتعد دانيال والكلبان يلحقان به، وكأنهما شبحان اسودان ضخمان، وتركوا اوفيليا تدخل الى غرفتها. في الداخل، اتسعت عيناها بفرحة وتمتمت لنفسها:

ـ كم هي جميلة ومثيرة هذه الغرفة!

وهكذا كانت. . الفراش من الطراز الحقيقي للقوائم الأربع، تحيط به ستارة مزخرفة وجوانب من المخمل. فيها كرسيان بمقعدين من المخمل، وسنّادة أقدام مماثلة. . مقعد نافذة تتكوم فوقه الوسائد الناعمة المريحة المنظر وإلى جانب على الجدار الأبعد، خزانة ثياب ضخمة، وخزانة أدراج ثقيلة، والسجاد السميك يغطي معظم الارض المكسوة بالخشب المصقول.

بسرعة، أفرغت اوفيليا حقيبتها. . الأشياء القليلة التي جاءت بها معها، ضاعت تماماً في الخزانة الضخمة. . ثم تسللت نحو الحمام بعد أن اندست في الروب الخاص، لتحس بالراحة وهي ترى أن كل التمديدات فيه عصرية، على الرغم من الأشياء الأثرية في كادوغان هال.

عادت أوفيليا الى غرفتها، وصعدت بتعب إلى السرير ذي القوائم الأربعة المرتفعة، متمنية أن لا يظهر لها أشباح من الجدران القديمة. . ثم أغمضت عينيها. . وما هي إلا لحظات حتى كانت تغط في نوم عميق، لم تستيقظ منه حتى طلوع ضوء اليوم التالي ودخوله مشعّاً عبر النافذة.

عند الساعة التاسعة، عادت أوفيليا الى طاولتها في المكتبة، مصممة على أن تقضي النهار كله، تنظم دفاتر الحسابات. . . لكنها لم تكد تفتح الصفحة الاولى حتى انفتح الباب، ودخل دانيال.

مزاجه المستريح المفاجيء الذي أظهره الليل القائت تلاشى تماماً. . . وظللت تقطيبة سوداء وجهه. . . بالكاد وقبل أن يلقي نظرة عليها أخذ يصدر إليها تعليماته بحدة:

ـ هناك عدة مشاكل من الأفضل ان تتعاملي معها قبل أي شيء آخر. المراحيض مسدودة في الجناح الغربي. . السقف في غرفة الاستقبال الجنوبية بدأ يرشح ماءً. لوحان من الزجاج مكسوران في مستنبت النباتات، والكلب بيوتي مريض في الردهة.

كانت فيلي مشغولة في تسجيل ما يقول دون أن تتاح لها الفرصة لسؤاله عن أي شيء. وحين رفعت نظرها أخيراً إليه، كان قد خرج. فتمتمت من بين أسنانها:

ـ شكراً لك على إخباري ماذا يجب أن أفعل حول هذه الأمور!

ومدت يدها الى دليل الهاتف المحلي وبدأت تقلب صفحاته.

جاءها ماكومبر بالغداء على صينية، ولكن ما عداه لم تشاهد شخصاً واحداً طوال اليوم. تعلم أن منزلاً بهذا الحجم لا بد أن يكون فيه عدد لا بأس به من الموظفين. . حتى في فصل الشتاء، حين لا يكون مفتوحاً أمام الزائرين، أحست كأنها تعيش في متحف كبير فارغ، ووجدت هذا الأمر مثيراً للتوتر قليلاً.

بعد الغداء، أجرت مكالمة مع أمها، يخامرها قليل من الشعور بالذنب. وما إن تأكدت أن كل شيء على ما يرام، حتى تنهدت ارتياحاً، وعادت إلى العمل.

كان الوقت متأخراً بعد الظهر حين عاد دانيال الى المكتبة. كان يتحرك بصمت وهدوء بحيث لم تدرك وجوده إلى أن رفعت رأسها لتجده أمامها. قفزت عن مقعدها قليلاً، ثم انزعجت من نفسها على الفور لهذا التصرف الرخيص، لكنه لم يلاحظ ما جرى، وجلس الى كرسي في الجهة المقابلة لها من الطاولة، ونظر اليها مفكراً لعدة لحظات. ثم سأل:

ـ كيف عالجت لائحة المشاكل التي تركتها لك هذا الصباح؟

ردت بهدوء:

ـ كل شيء على ما يرام... عامل أدوات صحية محلي سيأتي صباح الغد ليصلح المراحيض ويفتح المجاري، وسيلقي نظرة على السقف الذي يرشح ليرى إذا ما كان هناك انبوب مهترىء يسبب هذا، أم أن السقف نفسه بحاجة الى عامل بناء لإصلاحه. وحضر عامل زجاج وغيّر الألواح المكسورة في المستنبت.. كما اتصل بي بعد الظهر ليقول إنه أنهى عمله وقال إن الزجاج مكسور بسبب رشقه من قبل احدهم بحجارة اخترقته.

لمعت عيناه قليلاً.. ثم عادت أساريره إلى الهدوء، وهز كتفيه قائلاً:

ـ التخريب المتعمد مشكلة دائمة، حتى في مكان كهذا. ولا يمكن أن نفعل شيئاً لوضع حدّ له.

ـ ما رأيك بنوع من الدوريات الأمنية؟

ـ مكلفة جداً. من الأوفر أن نصلح الخراب من حين إلى آخر.

ـ إذا كنت مقتنعاً بهذا.

صمتت أوفيليا قليلاً ثم قالت بلباقة أكثر:

ـ مشكلة الكلب بيوتي الصحية، كلمت ماكومبر بشأنها وقال إنه سيكلف احداً بأمر العناية به.

استرخى فم دانيال بما يشبه الابتسامة الخفيفة، وقال:

ـ لم أتوقع منه الاهتمام الشخصي... فله حساسية خاصة تجاه مثل هذه الأمور، خصوصاً فيما يتعلق بالكليين.

لم تستطع إلا أن تبتسم:

ـ بكل تأكيد لم تبدُ عليه السعادة حين أخبرته... وقال ايضاً إنه

سيدعو شخصاً اسمه بلاكمور ليأخذ الكلب إلى بيطري ليتفحصه. ويتأكد من أن ما به ليس أكثر من اضطراب في المعدة.

هز دانيال رأسه، وقال:

ـ ذلك هو نيڤن بلاكمور.. إنه يعمل كل شيء هنا.. ويعمل كسائق حين تدعو الحاجة. وهو يحب الكليين ولن يمانع في العناية بهما.

ـ لا أظن ماكومبر كان قلقاً بالفعل على صحة الكلب... لكنه كان يرغب في أن لا يحدث له شيء.

ـ سأرى نيڤن بلاكمور فيما بعد، لأعرف ماذا قال البيطري ربما يكون هذا الاضطراب ناجماً عن شيء أكله الكلب، بيوتي يعتقد أن كل شيء في هذه الدنيا يمكن أكله، شريطة مضغه بما يكفي، ولن تصدقي الاشياء التي حاول أكلها.

تذكرت الإناء المكسور، فسألت:

ـ هل من بين ما التهمه ازهار النرجس البرية؟

ـ سيحاول تناول أي شيء. أزهار، ساق كرسي، قطعة من السجاد.. إنه يطبق فكيه الضخمين على أكثر الاشياء عجباً. وأحياناً أظنه يفعل هذا لمجرد أن يزعج ماكومبر. فهو يعرف مدى انشغال باله لمجرد أن يصاب أي شيء في القصر بضرر خفيف.

ـ وأنت، ألا يقلقك هذا؟ إن كل شيء في هذا القصر يبدو أثرياً، وربما لا يقدّر بثمن... لا بدّ من أنك تحس بالمسؤولية الكبيرة، وتحاول أن تتأكد من ألاّ يمتد التخريب إلى أي شيء هنا.

تغيرت أسارير وجهه على الفور، وكأنها اصابت منه وتراً حساساً، فكرر بصوت قاس وحازم:

ـ أحس بالمسؤولية؟ لا أظن أحداً يقدر على اتهامي بقلة المسؤولية.. والضرر الذي أحدثه الكلب لا قيمة له.. إنه ثمن بسيط للصحبة الودودة التي يقدمها الكلبان.

حدقت إليه فيلي بحيرة وهي تقول:

ـ أتشعر بالوحدة هنا؟

فجأة، ندمت على ما قالت. . وبدا واضحاً أنه لا ينوي الرد على سؤال شخصي كهذا، والأكثر أنه أصبح متباعداً مرة أخرى، وكأنه يكره أي تدخل في حياته أو مشاعره الخاصة. وقال لها آمراً:

ـ انسي أمر الكلبين. ولنعد إلى أمور أكثر اهمية. . أعرف أنه لم يمض عليك هنا سوى أربع وعشرين ساعة، لكنك أبديت كفاءة في العمل. . وانت قادرة تماماً على ذلك.

احمرّ وجه فيلي بالرضى، وقالت:

ـ شكراً لك. . .

لكنه قاطعها:

ـ أريد أن اتأكد من أنك لن تتخلي عن العمل خلال الأسابيع الستة القادمة. . لذلك أريدك أن توقعي هذا العقد.

ـ أي نوع من العقود هذا؟

ـ عقد بسيط، يقول: عليك أن تبقي هنا ستة أسابيع كاملة، وستحصلين في النهاية على مكافأة قيمة إضافة إلى مرتبك المتفق عليه. واذا تركت العمل قبل ستة أسابيع، فلست مضطراً إلى دفع بنس واحد لك.

وقفت أوفيليا على قدميها مصدومة وقالت:

ـ ليس هناك من حاجة اطلاقاً إلى مثل هذا العقد بيننا! سأبقى قدر ما تحتاج اليّ. لقد وافقت اصلاً على هذا.

ـ لكنني أفضل أن أجعل الاتفاق قانونياً وملزماً. فأنا لست بالرجل السهل العمل معه. قد أقول شيئاً يكدرك أو يهينك، فتحزمين حقيبتك وترحلين. ولا استطيع تحمل حدوث هذا، فهذا وقت من أكثر أوقات السنة انشغالاً لدينا. وامامنا كمية هائلة من العمل يجب إنجازها بسرعة وإتقان، ولن يكون الامر مريحاً ومناسباً أن اضطر الى التفتيش عمن يحل مكانك.

ـ سبق وأن قلت لك لن أتركك. لماذا لا يمكنك أخذ كلامي على محمل الثقة؟

ـ لأنني لم أعرفك جيداً بعد، آنسة اوفيليا ليندن. وكلمتك قد لا تعني شيئاً أبداً. من ناحية أخرى، الحوافز المالية يعتمد عليها عادة. وإذا اضطررت إلى أن تختاري بين الرحيل وبين الاستمرار في الاقامة والحصول على المكافأة الضخمة، فأنا واثق من أنك ستصلين الى القرار الصحيح.

غضب اوفيليا الآن بلغ حداً لم تستطع معه أن تقول كلمة واحدة. . ما من أحد عملت لديه من قبل، طالبها بمثل هذا الأمر المشين للسخط!

قال دانيال، محذراً، لكن بنعومة:

ـ إذا كنت لا تزالين مترددة في اتخاذ القرار المناسب، دعيني أذكرك بأن هناك سمعة وكالتك على المحك. . قد لا اكون محبوباً هنا. . لكن توصيتي لها الكثير من الوزن. ولن يكون في مصلحة وكالتك بكل تأكيد، أن أعرب عن عدم رضاي عن مستوى الخدمات التي قدمتها لي.

ـ أنت لست بالرجل الطيب، لورد كادوغان.

هز كتفيه مجيباً:

ـ قيل لي هذا من قبل، ولم يقلقني ذلك، لذا من الصعب أن يقلقني الآن. . أتنوين أن توقعي العقد، آنسة ليندن أم لا؟

تمنت أوفيليا من كل قلبها لو تمزق الورقة الى نصفين، ثم تخرج من هنا. جزء منها كان يستعد ليفعل هذا بالضبط، ولتذهب كل النتائج الى الجحيم. لكن جزءاً آخر، كان يهمس بكلمات التحذير في اذنيها، يذكرها بصعوبة أن ترمي كل شيء عملت لأجله حتى الآن وللسنوات الاخيرة أدراج الرياح.

مع الشعور بإحساس من الامتعاض والمرارة من جرّاء استسلامها لرغبات هذا اللورد الفظ الطباع. . سحبت اوفيليا الورقة نحوها، ووقعت اسمها في الاسفل. ثم أبعدتها عنها بغضب.

قال لها دانيال ثورب، وعيناه تبرقان بالرضى:

ـ أظنك اتخذت القرار الحكيم. لكنني منذ البداية كنت أعرف هذا. واضح أنك فتاة متزنة، اوفيليا ليندن، ولست من النوع الذي ينساق برد

فعل عاطفي، أو محاولات عقيمة للتحدي.. أظنك ستظهرين على حقيقتك في غضون الاسابيع الستة القادمة.

وبطريقة ما، تمكنت فيلي من لجم لسانها وهو يلتقط العقد ويترك المكتبة. أمر واحد مؤكد: ستعدّ الأيام من الآن وحتى انقضاء الأسابيع الستة، بانتظار اللحظة التي تتمكن فيها من الخروج من هنا، وتدبر ظهرها إلى هذا المتطلب المستحيل المتعجرف: اللورد كادوغان.

* * *

٣ ـ سجين يبحث عن الحرية

على عكس الليلة الفائتة، لم تنم فيلي جيداً حين أوت الى الفراش ذلك المساء. أخذت تتقلب وتتلوى لأجل طويل إلى أن سمعت دقات الساعة من بعيد تعلن الثانية صباحاً. تأوهت، لن تكون مناسبة لأي شيء في الصباح، إلا إذا حصلت على شيء من النوم. لكن البقاء في السرير، لن يساعدها، على ما يظهر. كلما أغمضت عينيها بشدة أكثر محاولة إجبار نفسها على النوم، كلما ازداد قلقها وأرقها.

رمت الأغطية عنها، ارتدت الروب، ودست قدميها في الخف. ثم تقدمت نحو النافذة لتزيح الستائر الثقيلة، وتتطلع الى الخارج.

كان الليل شديد العتمة، والأرض التي تحيط بالقصر مغطاة بظلال قاتمة.. وارتجفت اوفيليا. حين وصلت الى هنا، أحست بحسد عميق لدانيال ثورب لكونه محظوظاً بالعيش في مكان كهذا. وبعد يومين فقط، لم تعد واثقة.. فمكان بهذا الحجم يحتاج الى عائلة كبيرة لتملأ غرفه، وتعطيها جو الحياة والبهجة. أما لرجل وحيد، فالحياة ليست سعيدة، إلا إذا كان يتمتع بالحياة كناسك. ربما لا يكون الوضع هكذا خلال الصيف، حين يُفتح القصر أمام السواح والزوار، ويتجول الناس فيه بالمئات يومياً.. على عكس ما يشهده في فصل الشتاء من وحشة وجمود.

نظرت الى خارج النافذة ثانية، لتلاحظ أن بضع رقع من الثلج بدأت تتساقط متطايرة في كل اتجاه. وفجأة، بدا لها أن شيئاً يتحرك في الخارج، استرعى اهتمامها. حدقت جيداً لترى ما هو، وأخذت تمعن النظر في الظل المعتم أمام مجموعة شجيرات كثيفة... إنها واثقة من رؤيتها لشيء

ما . . أو شخص ما . . يتحرك هناك . واتسعت عيناها بحذر، لقد قال دانيال إن القصر يتعرض أحياناً للمخربين، لكن هذا يعني بعض الأولاد أو المراهقين، وهؤلاء لن يتجولوا هكذا في الثانية صباحاً، وفي مثل هذا الصقيع القارس .

إذن، من يمكن ان يكون متربصاً هناك في مثل هذا الوقت من الليل؟ أهو لص؟

عضت فيلي شفتها توتراً . . ماذا يجب أن تفعل؟ أفضل شيء، قررت وهي ترتجف، أن تتأكد اولاً أنها لا تتخيل كل شيء . فمن الصعب أن ترى من هذه المسافة، وستحصل على رؤية أفضل من إحدى نوافذ الطابق الأرضي . وإذا تبين لها أن عينيها تتوهمان، فستجد المطبخ في طريقها، لتحضر لنفسها شراباً ساخناً، قد يساعدها على النوم الذي طار عن أجفانها .

الممر في الخارج لم يكن مضاءً، لكن بوجود النوافذ الطويلة على احد جوانبه، لم يكن معتماً جداً . . وبحذر . . تقدمت إلى السلم . . . ونزلت على مهل، ثم اتجهت نحو غرفة الاستقبال الرئيسية . . حيث سيتاح لها من هناك مجال للرؤية الجيدة لما يجري في الخارج .

لم تسمع حتى الباب الذي انفتح خلفها بهدوء . . ولا كان لديها فكرة أن شخصاً ما يقترب منها، حتى حطت يده بخفة على كتفها .

على الفور اقشعر بدن اوفيليا واطلقت صرخة حادة من الخوف والذعر . . وطار قلبها رعباً وهي تلتفت، لكنها شاهدت بريق العينين اللتين اصبحتا مألوفتين لديها .

سألها دانيال بحدة:

ـ ماذا تفعلين هنا في الظلام وفي هذا الهزيع الأخير من الليل؟

ابتلعت ريقها، وقالت بصعوبة:

ـ ظننت . . أن . . ظننت أنني رأيت شخصاً يتحرك في الخارج . . . في الحديقة .

اشتدت قبضة أصابعه على كتفها، تحفر لحمها . . ولم يبدُ انه يعي

ردة فعلها المتألمة، وسأل بحدة:

ـ متى؟

ـ منذ دقائق . . لم أستطع النوم، فوقفت قرب النافذة وكنت واثقة من أنني رأيت شيئاً في الخارج . . . فقررت أن أنزل إلى هنا لالقاء نظرة قريبة، لأرى اذا ما كنت محقة .

ـ وماذا كنت تنوين أن تفعلي، إذا كنت محقة؟ أن تتعاملي مع الدخيل بمفردك؟

ـ حسناً . . أنا لم افكر الى هذا الحد . فعلى أي حال، قد اكون مخطئة . فالسماء مثلجة، ومن الصعب الرؤية بوضوح . . وربما تخيلت شيئاً ما .

ـ ابقي هنا . . سأذهب لأتأكد وأستجلي حقيقة الأمر .

ـ أفضل المجيء معك، اذا لم تمانع . فالمكان مخيف قليلاً هنا لأبقى وحدي .

سخر بلطف:

ـ اذن، تكشف الآنسة اوفيليا ليندن عن المزيد من أسرارها، إنها تخاف الظلام . ابقي معي إذا شئت . لكن تأكدي أن تبقي ورائي . ولا تحاولي أن تكوني بطلة .

ـ لا تقلق . . لن أفعل!

لحقت به عبر ممر جانبي، أوصلهما إلى باب يفضي الى الخارج . فتحه دانيال دون صوت، ثم خطا إلى الخارج . . لفت فيلي روبها بشدة اكبر حولها مع هبوب ريح ثلجية، ثم أطلت على الخارج بحذر .

ولعدة لحظات، لم تستطع رؤية شيء، عدا نفناف الثلج الأبيض المتطاير . ثم مدت يدها لتلمس ذراع دانيال وتقول همساً:

ـ هناك .

كانت تعلم أنها ليست مخطئة، وأن هناك بكل تأكيد شيئاً ما يتحرك قرب الشجيرات الى جانب المرج . وأحست بدانيال يتصلب وهو يحدق إلى الظلام . لكنه بعد لحظات استرخى ثانية، ثم أطلق صفيراً منخفضاً .

قفزت فيلي إجفالاً حين غيّر الشكل المتحرك اتجاهه، وتحوّل نحوهما. ثم أطلقت ضحكة هستيرية منخفضة متواصلة حين قفز الشكل المألوف أمامهما فوق الثلج الذي اخذ يتراكم.

ـ إنه أحد الكلبين!

تجاوزها الكلب، وراح وبره المبلل يلامس يدها، ثم توجه الى الممر، وسرعان ما اختفى.

اقفل دانيال الباب، واحكم الرتاج قائلاً:

ـ إنه بيوولف.. غالباً ما يتأخر في الخارج ليلاً على عكس بيوتي الذي يحب البقاء في المنزل، ويقنع بأن يقضي معظم وقته في الداخل، يقضم المكان ويقطعه. لكن لبيوولف رغبات بدائية أكثر، وهذا ما يجعله لا يهدأ، ويمضي معظم وقته يجول في الأراضي المحيطة بالقصر.

تنحنحت أوفيليا، لتجلو حنجرتها بقلق وتقول:

ـ ربما يجب أن... قد تكون فكرة جيدة لو تأتي له بكلبة.. عندها لن يعود.. محبطاً هكذا. وأظن من المفيد جداً أن تولد جراء مؤصلة.

رفع حاجبه، ورد بصوت منخفض:

ـ اقتراح مثير للاهتمام. وأنا واثق من أن بيوولف سيكون وراء هذا النسل مئة بالمئة.. لكن ما قد نستفيد منه من بضعة جراء، لن يكون له فارق كبير لموازنة القصر، ثم قد يقع ماكومبر مغشياً عليه لو عرف انني انوي فعل شيء كهذا.

ـ أظنك على حق، وعلى بيوولف المسكين أن يستمر في المعاناة، والسير الطويل.

ابتسم، دون توقع:

ـ سيره الطويل ليس دائماً دون فائدة.. الكثير من الناس هنا لديهم كلاب أناث مستعدات لأن يحملن بجراء كبيرة الحجم.

ضحكت فيلي:

ـ أنت محظوظ لأنهن لم يحاولن إلزامه بلعب دور الأبوة.

أطلقت اوفيليا تثاؤبة وأكملت:

ـ الأفضل أن أعود الى السرير.. فالوقت متأخر جداً.

ـ إنها حوالي الساعة الثالثة صباحاً.

لاحظت أوفيليا أن دانيال ما زال يرتدي كامل ثيابه، فبادرته بالسؤال:

ـ وانت لم تدخل الفراش بعد. هل تبقى ساهراً الى هذا الوقت المتأخر دائماً؟

بدا أن عينيه زادتا لمعاناً، وقال بلهجة ذات معنى:

ـ ربما أنا مثل بيوولف.. ربما أعاني المشاكل من رغباتي البدائية الخاصة.

للحظة، توترت أعصاب فيلي حذراً.. ثم أنقذها تفكيرها السليم، فأطلقت شهقة عدم تصديق منخفضة وقالت:

ـ ومن تظن نفسك تخدع؟ أنت اللورد كادوغان.. وتعيش في هذا القصر الرائع... وأنت أبعد كثيراً من أن تكون مفلساً.. على الرغم من الفواتير التي تستمر في الشكوى منها... ثم أنت لستِ بالرجل البشع.. إن رجلاً بمثل هذه المؤهلات لا بد أن يعدّ صاحب حظ منكود إذا لم يكن حوله سرب كامل من النساء يتبعنه ويجرين وراءه حيثما اتجه.

متأخرة جداً، أدركت انها تخوض في أمر شخصي عميق.. وليس من حقها أن تقول شيئاً كهذا له.. وبارتباك أرسلت نظرة سريعة نحوه، لترى ما إذا كان غاضباً.. لكنه لم يبدُ منزعجاً. بل كان ينظر اليها مفكراً، الأمر الذي جعلها تحس بالارتباك والتوتر أكثر من انفجار غضبه.

واخيراً علّق بخشونة على كلامها بالقول:

ـ انت حقاً تؤمنين بمبدأ أن تقولي ما يجول في خاطرك.. ألست هكذا؟

ـ آسفة لو أغضبتك.

هز رأسه:

ـ لكنني أحب الصراحة.. وستندهشين كم هي نادرة.. الكثير من الناس يغيرون تصرفاتهم فور ان يكتشفوا أن للمرء لقباً يفرض عليهم هالة من التهيّب والاحترام.

ردت أوفيليا على الفور:

ـ هذا هراء! أعني.. أن مجرد كونك لورداً، لا يجعلك هذا أفضل من غيرك.

ـ لا.. هذا صحيح.

هذه المرة، بدت التسلية في صوته، فاحمّر وجهها.. إنها بكل تأكيد تكرر قول كل ما هو خاطىء الليلة! لسبب ما، يثير هذا الرجل، الجانب الوقح من شخصيتها.. ربما لانهما ما زالا واقفين في العتمة، وهذا الأمر يجعلها تقول اشياء لا يمكن أن تقولها لو كانت ترى وجهه بوضوح.

تقدم دانيال منها قليلاً، فأحست بقشعريرة.. ماذا الآن؟ لن تستطيع معرفة شيء عن هذا الرجل الذي لا يمكن أن تتكهن بما يفكر. لم يحاول حتى أن يلمسها، فأخذت تسترخي. لا حاجة للذعر.. لن تواجه مثل هذه المشاكل. رجل مثل اللورد لا يمكن ان يهتم بامرأة مثلها. لن تستطيع حتى أن تتصور ما هو ذوقه في النساء. شخص مثقف، متحذلق، مُجرّب كثيراً، شخص مثله، لا بد وأن يكون قد اكتشف كل الحدود، وخبر كل الألاعيب، التي تتمتع بها النساء مع الرجال.

ربما، لأنها اقنعت نفسها بالأمان، جاءت كلماته صدمة لها وهو يقول:

ـ بما أنك بدأت بالصراحة الليلة.. ربما تعطينني رداً صادقاً على سؤال بسيط.. أترغبين في الذهاب معي إلى الفراش آنسة اوفيليا ليتدن؟

ردت، مصدومة، وبكل إباء وسخط:

ـ بالطبع لا!

لم يبدُ عليه الغضب أو خيبة الأمل، بل هز كتفيه قائلاً:

ـ لم أتوقع منك قول نعم.. لكن إذا غيرت رأيك، دعيني أعلم.. عمت مساء.

صاحت به:

ـ هاي.. انتظر لحظة! لا يمكنك قول شيء كهذا لي ثم الانصراف ببساطة.

ـ ولمَ لا؟

ـ حسناً.. لا يمكنك..

ارتفع حاجباه قليلاً، وقال:

ـ طرحت عليك سؤالاً منطقياً، وأجبت عنه. ماذا هناك بعد؟

ـ لم يبدُ ما طرحته منطقياً لي!

ـ إذن، لا بد أن حياتك كانت منزوية بشكل متطرف. أجد هذا أمراً صعب التصديق، كما أجد من الصعب التصديق أن أحداً لم يطلب منك هذا من قبل.

كانت فيلي ممتنة لعدم وجود نور يكفي ليرى الاحمرار الشديد الذي غطى وجهها. وقالت:

ـ لم أقل هذا. لكن الأمر.. فقط.. أنني.. لم أتوقع سماع هذا منك.

ـ تعنين أن رجلاً مثلي، لا يجب أن يرغب في مثل هذه الأشياء؟

وكأنها اصابت وتراً حساساً في اعماقه.. فسألته محتارة:

ـ ماذا تعني برجل مثلك؟

أجفلت أوفيليا لتغير مزاجه الذي بدا في قوله:

ـ لا يهم.. انسي الأمر!.. يا إلهي! إنني بحاجة الى شراب ساخن.

ـ وانا كذلك بحاجة الى شراب ساخن قبل العودة الى النوم.

ـ ماذا تريدين.. قهوة؟

ـ لا.. كنت أفضل الكاكاو مع الحليب الساخن.

نظر إليها لحظات ثم ألقى رأسه إلى الخلف وانفجر ضاحكاً..

ردة فعله كانت غير متوقعة ودفعتها الى النظر إليه بقلق.. وكرر كلامها:

ـ كاكاو ساخن؟ حسناً.. إذا كان هذا ما ترغبين به..

أمسك ذراعها، لتجد نفسها تجري معه في الممر، وهي تسأل:

ـ الى أين ستذهب؟

ـ الى المطبخ، طبعاً.. عرضت عليك ليلة رومانسية، ونسيان الهموم

في فنجان قهوة... لكنك تفضلين كوباً من الكاكاو بالحليب الساخن... إذن هذا ما يجب أن تحصلي عليه.

اخيراً فتح دانيال الباب، وأدخلها، ثم اضاء المصابيح. رفرفت عيناها أمام النور الساطع، ثم ارتفع جفناها الى الاعلى بدهشة.. المطبخ ضخم جداً! الأواني والادوات النحاسية كانت معلقة على الجدران، التي ركزوا أمام أحدها أفراناً ضخمة، سطوحها نظيفة لا لطخة عليها.. على الرفوف أدوات طهي أصغر حجماً، والكثير من المعدات الحديثة: غسالات صحون، أفران «مايكرو وايف»، آلات كهربائية من كل صنف... بدا لها المكان مجهزاً بما يكفي ليكون مطبخاً تجارياً... فقالت معلقة:

ـ إما أن موظفيك يأكلون كثيراً.. وإما أنك تستقبل نصف سكان الجوار على العشاء كل ليلة! بمساعدة كل هذا، تتمكن بسهولة من إطعام الجيش.

ـ نحن نستقبل الناس هنا على اساس مهني. وهذا جزء هام من دخل القصر، مختلف أنواع المؤسسات والمنظمات التجارية والصناعية تتصل بنا، وتطلب تنظيم مختلف انواع الحفلات لها. وعادة ما تستخدم القاعة الكبرى، إنها موقع ملائم وهذا ما يناسب جيداً الشركات الاميركية. وإذا كانت الحفلة حميمة أكثر، وشاءت الشركات استقبال بضع زبائن مهمين لها، نستخدم غرفة الطعام الصغيرة، ليس لها نفس الجو الفخم الذي للقاعة الكبرى طبعاً، لكننا مع ذلك نستخدم فضيات العائلة، ونطلب من ماكومبر العناية الفائقة بالضيوف الذين ترغب الشركة المضيفة في أن تؤثر فيهم. كل هذا يعمل بشكل مكتمل ومرضٍ.

ـ وهل تتمكنون من طهي الطعام وتقديمه بمفردكم؟

ـ هذا يتوقف على عدد الضيوف. إذا لم يكونوا كُثر، تستطيع السيدة ماكومبر ان تتدبر امر الطعام، مع مساعدة من العمال النصف دائمين. واذا كانت المناسبة كبيرة، يصبح من السهل أكثر، وأكثر اقتصاداً، أن نستقدم من يقدم الطعام من الخارج.

نظرت اليه أوفيليا، مفكرة، ثم قالت:

ـ لا بد أنه شعور غريب، ان تتقاسم منزلك مع الكثير من الغرباء.

رد مقطباً:

ـ كادوغان هال.. ليس منزلي.

ـ هذا أمر غريب.. أنت تعيش هنا.. أليس كذلك؟

رد باقتضاب:

ـ ليس بمحض اختياري... أين هو الكاكاو اللعين...

لاحظت فيلي وجود الكاكاو على احد الرفوف داخل خزانة:

ـ إنه هناك...

تقدمت نحو الثلاّجة لتجد بعض الحليب، ثم أحضرت فنجاناً وصحناً، وسألت:

ـ أتريد القليل؟

تجهمه كان رداً كافياً، فصبت الحليب في الابريق لتسخنه بينما وضع دانيال ابريقاً آخر ليحضر لنفسه القهوة.. وحين انتهيا صب كل منهما لنفسه فنجاناً وجلس يرتشفه، ثم نظرت أوفيليا اليه بفضول وهي تسأل:

ـ ماذا عنيت بقولك إن القصر ليس منزلك؟

ـ ما يعنيه هذا بالضبط. ظننتك تعرفين كل شيء عن تاريخ عائلتنا.. عائلة «ثورب» هي الموضوع الاساسي للشائعات هنا. ما عليّ سوى أن أعطس، ويعرف الجميع بهذا بعد ساعة.

ـ هذا لأنني اسكن بعيداً.. ونحن نسبياً جدد على المنطقة فوالدتي لم تسكنها سوى منذ سنتين. وجئت أسكن معها بعد وقت قصير. وفوق كل هذا، أنا مشغولة بإدارة وكالتي، بحيث لم يكن لي الوقت الكافي لأهتم بالأخبار والشائعات المحلية... لكنني.. طبعاً.. أعرف المأساة المؤسفة التي حلت بشقيقك مؤخراً.

أخذ دانيال يقلب فنجان القهوة الساخن بين راحتيه للحظات، ثم قال بحدة:

ـ ليس مؤخراً.. حصل هذا قبل ستة أشهر... مع أن الوقت اللعين

يبدو لي عمراً كاملاً.

قالت أوفيليا بتعاطف لطيف معه:

ـ أكان حادثاً مريعاً؟

ـ ذلك الأبله الشاب! رمى بنفسه الى التهلكة بسبب عمل خيري سخيف!

ـ لم يكن يعلم ان شيئاً سيحدث، وأن المظلة لن تنفتح في الوقت المناسب.

ـ لم يكن من حقه المخاطرة بحياته هكذا! ولأجل ماذا؟ ليس فقط لأجل زيادة ربح العمل الخيري.. بل لزيادة الدعاية لهذا القصر اللعين، على أمل أن يجذب المزيد من الناس.. حسناً لقد حصل على الدعاية.. حين يسقط أصغر ولد في عائلة «ثورب»، في مظلته وبشكل أخرق، ويكسر عنقه، هذا دون شك خبر يحتل الصفحات الأولى!

أحست فيلي بالرعب من قسوته. ثم أدركت أن هناك مسحة ألم عميق تحت كلماته الخشنة، وبدأت تفهم أنه لا يستطيع التغلب على ألم خسارته، إلا بإظهار الغضب على ما حصل.

سألته بهدوء:

ـ أكنت وشقيقك على وفاق تام؟

ـ لا.. ليس كثيراً. لكننا كنا نفهم بعضنا بعضاً.. وبطريقة ما، كنا مكملين لبعضنا بعضاً.. ربما لأننا لم نكن نتشابه كثيراً.

زاد اهتمام فيلي بالأمر، فوضعت الفنجان من يدها، ومالت إلى الأمام قليلاً متسائلة:

ـ في أي الأمور كنتما مختلفين؟

ـ في كل الأشياء الممكنة، ويليام كان يحب القصر.. والشيء الوحيد الذي كان يرغب به، أن يمضي ما تبقى من حياته هنا.

فاندهشت فيلي وسألته:

ـ وانت ألا تحب المكان؟

ـ إنه كالسجن اللعين!

ـ لماذا إذن تبقى فيه؟

ـ انت لا تؤمنين بالكلمات اللبقة.. أليس كذلك؟

صمت، ثم ازدرد ما تبقى من فنجانه، وملأه من جديد قائلاً:

ـ لماذا أبقى هنا؟ بسبب وعد قطعته يوماً.. وما كنت لأظن أنني سأضطر إلى الوفاء به!

ـ وعد.. ولمن؟

ابتلع قليلاً من القهوة، وأضاف:

ـ لوالدي... ألا يزال والدك حياً؟

ـ لا.. لقد مات منذ عدة سنوات، إثر نوبة قلبية.

ـ وكذلك أبي.. هل اشتقت إليه؟

ـ أجل.. وكثيراً.

ـ هنا نحن نختلف.. فقلّما اشتقت الى ابي، ومن الصعب الحزن على من لا تكادين تعرفينه.

نظرت اليه أوفيليا مصدومة وهي تقول:

ـ لا بد من أنك كنت تحس بشيء ما نحوه.

ـ كل ما أذكره أنه كان هناك رابطة دم بيننا.. وأحسست بنوع من الواجب، كما أعتقد. لكن ليس كثيراً.

ـ لماذا؟

ـ لانني لم أكن أشاهده كثيراً. أمي ماتت وهي تلد ويليام فوجد أبي نفسه فجأة مع طفل رضيع وآخر صغير، ولم يدر ما يفعل بنا، فاستخدم مربية لتعتني بنا الى أن تصبح في سن يؤهلنا لدخول المدرسة الداخلية.. بعد ذلك لم نعد نأتي الى البيت سوى في العطل. وأنا لم أكن ارغب في العودة الى كادوغان هال، على خلاف ويليام، الذي كان يحب القصر ويكره الذهاب الى المدرسة. حين كان صغيراً كان يشتاق الى البيت لدرجة المرض الجسدي، فيما بعد لم يستطع الانتظار حتى انهاء الجامعة، ليسكن هنا على الدوام. ثم حدثت لأبي النوبة القلبية، فاستدعينا معاً الى هنا، وبما أن والدي عاش لبضعة اسابيع بعد أول نوبة ألمّت به، فقد كان

هناك الكثير من الوقت لمشاهد «سرير الموت» المؤثرة. يبدو أنه أدرك متأخراً، أن هناك أشياء كثيرة أهملها، ويريد قولها لنا. وهكذا تلقينا محاضرة إثر محاضرة، حول المسؤوليات والواجبات لكوننا الباقيين الاثنين الوارثين لعائلة «ثورب» ولقد تلقف ويليام باهتمام كل شيء قيل له.. لأنه كان من عائلة «ثورب» قلباً وقالباً، أما أنا فتحملت ما كنت أسمع، مع أن أكثر المحاضرات كانت موجهة اليّ. فأنا الابن الاكبر، وقانونياً سيصبح كل شيء لي بعد رحيله، ثم رمى أبي آخر قنبلة علينا. حين شارف النهاية، جعلنا معاً نقسم على القيام بكل ما نستطيع للاحتفاظ بالقصر ضمن ممتلكات العائلة، وأن يبقى هناك واحد من عائلة ثورب يعيش هنا وإلى أقصى مدة ممكنة.

ـ ووافقت؟

رفع كتفيه بإشارة يأس غريبة، ليقول:

ـ وما كان بوسعي أن أفعل غير هذا؟ الرجل كان يموت، وهو أبي. ولم انوقع أن اضطر إلى الوفاء بالوعد. ويليام كان موجوداً، ويتوق إلى فرصة العيش في القصر وإدارة الاملاك. ومات أبي بعد بضعة أيام. وبعد إتمام مراسم الجنازة سلمت القصر إلى ويليام، وقلت له إن بإمكانه فعل ما يشاء به، وكان يمكن أن اعطيه اللقب لو كان هذا ممكناً قانونياً، ثم انطلقت أعيش كما يحلو لي.

ـ تفعل ماذا؟

نظر اليها نظرة غريبة، وكأنه يتوقع منها ان تكون عارفة:

ـ درست الفن.. سافرت.. عشت بسعادة لعدة سنوات.. وكان ويليام يعيش في جوه المناسب له، يحافظ على القصر ويديره... وخطب فتاة، وكنت أعلم أنه سرعان ما سينتج نسلاً جديداً من عائلة «ثورب»، سيتولون أمر الأملاك من بعده. وبدا لي المستقبل آمناً مستقراً.. ثم.. قام ذلك الاحمق اللعين بكسر عنقه، وتهاوى كل شيء متحطماً قطعاً صغيرة. ولم أعد حراً في متابعة حياتي كما أشاء. لم يكن أمامي خيار سوى العودة الى هنا لمحاولة النهوض بالحمل الثقيل الذي تركه ويليام على عاتقي.

كان في صوته رنة ألم وهو ينطق اسم أخيه، وأحست فيلي بالعاطفة التي كانت تجمعهما على الرغم من اختلاف الحياتين اللتين عاشاها وتباين رغباتهما، في أشياء مختلفة. وقالت فيلي بصوت منخفض:

ـ ما من أحد كان يستطيع إجبارك على الوفاء بوعدك.. لا يمكن أن يكون للوعد قوة تنفيذ قانونية.

برقت عيناه بالغضب وقال:

ـ لقد أعطيت وعداً! قد لا يعني لك هذا الكثير.. لكنه أمر ما كنت أستطيع التهرب منه هكذا.

ـ وهكذا كان عليك إمضاء ما تبقى من حياتك وأنت تقوم بعمل تكرهه.. لا يبدو لي هذا إنصافاً.

اربدّ وجه دانيال، وقال:

ـ أنت ساذجة جداً لو آمنت أن الحياة منصفة!

هزت اوفيليا رأسها وأجابت على الفور:

ـ أنا لا اؤمن بهذا، وأنا بالتأكيد لست ساذجة.. لكنني فقط، كنت أتعاطف معك.

فردّ بحدة:

ـ لست بحاجة إلى عطفك. أنا كبير بما يكفي، ومجرّب بما يكفي.. بكل تأكيد.. كي أتعامل مع مشاكلي بنفسي.

فنجان الكاكاو كان قد اصبح الآن بارداً.. أخذته نحو المغسلة، نظّفته، واستدارت الى دانيال قائلة:

ـ سأذهب الآن لأنام.

لم يرد عليها، ولم ينظر اليها.. وفكرت أنه سيبقى ساهراً يفكر بأحزانه.. ومع أن شق طريقها عبر ممرات وأروقة القصر الشبحية المخيفة فيه رهبة، إلا انها كانت تحس بأن هذا افضل من أن تشعر به يلحق بها.

ما إن وصلت إلى باب المطبخ، حتى وقف فجأة، وتقدّم لينضم اليها. بدأ قلبها يخفق بسرعة، ونظرت اليه متوترة، فرد النظرة بعينيه السوداوين اللتين لا ترفان ابداً، واضطرت الى ابعاد نظرها عنه. وقال:

ـ الأفضل أن أوصلك إلى غرفتك.

ردت بسرعة:

ـ لا بأس في هذا... سأكون بخير لوحدي. إبقَ هنا وأنهِ شرب قهوتك.

ابتسم ابتسامة الذئب.

ـ أظنك خائفة من أن تبقي في الظلام معي؟

ـ بالطبع لا..! أنا فقط لا.. لا أريد ازعاجك.

ـ ما من إزعاج.. على أي حال، لو تركتك لوحدك قد يطلع الصباح قبل أن تعودي الى غرفتك.

ـ لكن لدي إحساس رائع بالاتجاهات.

استند دانيال الى الباب، ليتابع قائلاً:

ـ إذن، قولي لي بالضبط كيف ستصلين الى هناك.

أخذت تبحث في ذاكرتها عن ردّ، ثم قالت:

ـ تذهب عبر هذا الممر ثم الى اليسار.. لا.. بل تصعد بضعة درجات سلم الى اليمين، ثم تستدير الى اليمين ثانية...

صمتت فجأة، ثم تابعت يائسة:

ـ حسناً.. أستسلم.. كيف أصل الى غرفتي؟

ـ الحقي بي.

وانطلق بسرعة عبر الممر المعتم، وما هي إلا دقائق حتى كانا يقفان امام بابها، وتنهدت ارتياحاً:

ـ شكراً لك، تصبح على خير.

لكنه لم يتحرك، بل وقف ينظر اليها مفكراً، ثم قال:

ـ أتذكرين ذلك السؤال الذي طرحته عليكِ سابقاً؟

بكل تأكيد تذكر.. آه.. يا للسماء.. هل سينقلب هذا الى موقف صعب؟ الوقت متأخر جداً، وهي الآن متعبة حقاً. وبكل تأكيد لا تريد أن تتحمل التعامل مع غزله.. وأكمل سؤاله:

ـ لا أظنك راغبة في تغيير ردك؟

دون تردد اجابت:

ـ لا.. وإذا كنت تعتقد انك ستجد النوم مستحيلاً.. أقترح عليك أخذ زجاجة ماء ساخنة معك الى السرير.

رد باسترخاء وبصوت كسول، يتضح بالإغراء:

ـ لكنني أفضل أن آخذك انت.

أحست، بقلق، إذ من السهل الوقوع في حبائل إغرائه اذا لم تكن حذرة.. وتابع دانيال بصوت آسف وبنفس اللهجة المتخفضة المخملية:

ـ اعتبري نفسك محظوظة آنسة اوفيليا ليندن، لأنك تتمتعين بهذا المزاج السهل... وإلا لما كنت مستعداً لقبول «لا» كرد منك او بكلام آخر ما كنت لأسألك ما سألت.

ـ ألن تتوقف عن اللف والدوران هكذا وتتركني أذهب الى فراشي؟

ـ الساعة تقارب الرابعة صباحاً.. ولقد فات وقت نومي وهذا أمر يجعلني دائماً أحب الثرثرة دفعاً للسأم والوحدة.

ـ إذن، اذهب وحاول النوم لتفكر بما ستقول.

استدارت لتفتح الباب، لكنها احست بلمسات خفيفة دافئة تداعب مؤخرة عنقها، حيث كانت تنسدل خصلة من شعرها المرفوع، فأبقت ظهرها مداراً إليه بثبات، ودخلت الغرفة، واقفلت الباب وراءها، لكن الباب لم يكن له قفل، ولم تكن هناك طريقة لمنعه من اللحاق بها.. ومع ذلك كانت ترغب في الاعتماد على حدس يقول لها إنه غير مهتم بها حقاً، وإنه إنما يمارس معها لعبة يسلي بها مزاجه السوداوي... اخيراً اطلقت تنهيدة ارتياح منخفضة، وتوجهت الى السرير، لتتكور متعبة فوقه.

إن هذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر والمفاجآت، جعلت آخر اهتماماتها أن تستدرج الى مثل هذه المقابلات التي تثير القلق والاضطراب، فهي لا تريد لما حصل أن يتكرر ثانية.. وقررت أنها من الآن وصاعداً، ستلتزم الفراش ليلاً، مهما سمعت خارج نافذتها او غرفتها.. ولن تتسلل بعد عبر المنزل في الظلام.. وبهذا ستبقى آمنة...

liilas.com
rayqh

لكنها . . لم تستطع التخلص تماماً من ذلك الانطباع المقلق الذي بات يساورها منذ الليلة المتصرمة، وهو أن ما من امرأة تكون آمنة في وجود دانيال ثورب.

* * *

٤ ـ خادمة اللورد

في اليوم التالي، لم ترَ فيلي الكثير من اللورد كادوغان الغريب الأطوار، وهذا أمر ناسبها كثيراً. وبما أن هناك الكثير من الاعمال المكتبية التي ما زالت أمامها لتتعامل معها، فقد بدأت بالعمل الشاق، وحين كانت تتمكن من الحصول على ساعة فراغ غريبة، كانت تمضيها في استكشاف القصر، والأملاك المحيطة به، وتتحدث الى الناس الذين تلتقي بهم. كانت تعلم أنه خلال الصيف، سيكون هناك المزيد من الناس الذين يعملون في القصر، لكنها تعجبت من عدد الموظفين هناك، حتى في مثل هذا الأوان من السنة. فعدا ماكومبر، هناك موظفان يعتنيان بالحدائق بشكل دائم، مدير مزرعة، سائس، مسؤول غابات، يشرف على مناطق حرجية واسعة حيث تزرع الأشجار لأغراض تجارية. . إضافة الى آخرين شاهدتهم فيلي عن بعد وهم يقومون بأعمالهم. . وبالإضافة إلى هذا هناك ست نساء محليات، يأتين حالياً مرتين في الاسبوع لتنظيف المنزل، أمّا في الصيف فيأتين كل صباح لنفض الغبار وتلميع كل شيء يقع عليه النظر استعداداً لاستقبال العموم عند الساعة الواحدة بعد الظهر.

عملها اليوم، قاطعته دقات خفيفة على باب المكتبة، ثم انفتح الباب ليدخل رجل طويل مرخي المظهر، في اواسط الثلاثين من عمره. وقال يقدم نفسه:

ـ أنا نيقن بلاكمور.

ـ آه. . أجل. . أنت من يعتني ببيوتي. . كيف حاله؟

ـ أخذته لتوي إلى بيطري ليجري آخر الفحوصات له، وأعطاه شهادة

صحية نظيفة. يبدو أن سبب مرضه قد زال الآن.

ـ أنا آسفة لاضطرارك الى تنظيف نتائج مرضه.

ـ لست أمانع كثيراً. فأنا مولع بالكلاب.. على فكرة، كنت ألقي نظرة على سيارتك، وأظنني قادراً على إصلاحها.. فالمشكلة في جهاز حريق الوقود (الكاربورتير) ولن يكلفك إصلاحه كثيراً. تحتاجين فقط الى قطعتين جديدتين.. أتريدين أن أقوم بعملية التصليح؟

ـ سأكون شاكرة لك على عملك هذا حقاً.

في غياب سيارتها، كانت قد بدأت تحس بأنها عالقة في فخ.. فالنقليات المحلية غير موجودة، والقرية الأقرب وهي المكان الوحيد على مسافة معقولة من السير على الأقدام، حتى هذه كانت جزءاً من املاك القصر.. ففي هذه الأنحاء، من الصعب التخلص من تأثير عائلة ثورب.

فيما بعد، ومع إنهاء اوفيليا لمعظم عملها الصعب، بدأت تنظر الى الهاتف باشتياق.. وفي النهاية لم تعد تستطيع مقاومة الإغراء لحظة أخرى.. التقطت السماعة وطلبت رقم أمها.

مضت دقائق قبل أن ترد الأم، وبدأ جبينها يربدّ قلقاً.. وأصبحت راحتاها فجأة مبللتين بالعرق، والذعر يلوي معدتها.. هل كل شيء على ما يرام يا ترى؟

ثم سمعت صوت أمها الهادىء، وبدأت ترتاح ثانية.. فلا يمكن أن يكون قد حدث شيء، وإلا لما بدت أمها هادئة هكذا، وهي تقول:

ـ آسفة لتأخري في الرد، لكنني كنت أضع التوأمين في الفراش لأخذ قيلولة بسيطة.

ـ أهما بخير؟

ـ إنهما غامران بالصحة والعافية. سأصبح نحيلة كالشبح قبل عودتك الى المنزل!

ابتسمت فيلي، إنها تعرف ان امها تحب كل لحظة تقضيها معهما.

ـ اشتاق اليهما بجنون... وسيارتي معطلة، لذا لن أستطيع الهروب لزيارة سريعة.. أحد الرجال هنا عرض عليّ ان يصلحها لكنني لا أعلم كم

سيستغرق هذا من وقت.

تحدثت فيلي مع أمها لبضع دقائق أخرى، وأجابت الأم عن الأسئلة التي لم تتوقف، بدافع القلق الذي يساورها، وتمكنت اخيراً الأم من طرح اسئلتها بقولها:

ـ ألن تحصلي على أيام راحة؟

أجابت فيلي متجهمة:

ـ لست أدري.. في هذه اللحظات لا يبدو هذا ممكناً. الجميع هنا يعمل ساعات إضافية.. ويرتاح متى استطاع. كل شيء هنا يحتاج الى تنظيم، لكن، بطريقة ما.. يعمل... وهذا يعني أننا لن نعرف مقدماً متى سيكون لنا وقت فراغ، او كم سيدوم ذلك فيما لو تيسّر لنا؟

ـ وكيف ترين العمل مع اللورد كادوغان؟

لم تدر فيلي كيف ترد، لكنها قالت:

ـ هو مختلف عن المألوف.

ـ هل رأيت شيئاً من لوحاته بعد؟

سيطر صمت حيرة على فيلي.. ثم قالت:

ـ أظن أن مشغل رسمه يقع في الطابق الأول. لكنني أطللت برأسي عليه مرة، ولم أدخله.. كيف عرفت أنه يرسم؟

ردت الأم غير مصدقة:

ـ فيلي، أتحاولين خداعي؟

ـ بالطبع لا.. على أي حال، اذا آردت رأيي، يجب عليه أن ينسى أمر الرسم لفترة.. كنت أرتب الحسابات العائدة له، والأوضاع المالية سيئة جداً هنا. ويجب أن يتوقف عن إضاعة وقته على هوايته، ليركز جهده على إيجاد طرق للحصول على المزيد من المال.

ـ آه يا ابنتي العزيزة.. تقولين إنه يضيع وقته على الرسم! إنها ليست هواية لديه، بل هو احتراف.. أتعلمين كم يكلفك رسم لوحة شخصية لك على يد دانيال ثورب؟

ـ لا.. لست أدري.. ماذا تحاولين القول لي؟

ـ أقول فقط إن عليك توفير أرباحك لعدة سنوات لأجل هذا. حتى هذا، قد لا يكفيك. فيلي، إنه رجل مشهور.. يُنظر اليه كواحد من ابرز الرسامين في هذا العصر.. والناس يقفون خطاً منتظماً في انتظار تكليفه.. وهو ليس معروفاً فقط كرسام صور شخصية، بل هو يرسم المناظر الطبيعية كذلك... وأنا مستعدة للتخلي عن أي شيء في سبيل الحصول على لوحة لمنظر طبيعي من عمله.. لكنها في ثمنها أبعد من منالي.

سألت فيلي باستغراب غير مصدقة:

ـ لماذا لم تقولي لي كل هذا قبل المجيء الى هنا؟

ـ لم تتح لي فرصة إعلامك بذلك.. ثم إن كل شيء قد تم بسرعة في غضون اليومين السابقين لسفرك.. على اي حال، ظننتك تعرفين.. الجميع سمع بدانيال ثورب.

ـ الجميع ما عداي.. تعرفين أنني كسولة تماماً فيما يتعلق بالفن، أمي.

ـ يمكنني القول إنني لم أكن أدرك كم أنت جاهلة. ولأكون صادقة.. أحسدك.. فلا شك أن العيش مع رجل كهذا أمر مذهل وأمنية قد لا تتاح لأي كان.

وتنهدت.. لتقول فيلي فوراً:

ـ لست واثقة بأن كلمة (مذهل) هي الكلمة الصحيحة في مثل هذا المقام!

صمتت لحظات، تصغي السمع بعد سماع نباح بعيد لأحد الكلبين ثم أكملت بسرعة:

ـ من الأفضل ان أذهب.. أحدهم قادم... قبلي الطفلين عني.. إلى اللقاء يا أمي.

علقت السماعة قبل لحظات من دخول دانيال الى المكتبة. وكانت تدرك ان الاحمرار يكسو وجهها شعوراً بالذنب. وسألها دانيال بفظاظة:

ـ هل من رسائل أوقعها؟

ـ اثنتان فقط، وهناك عدة فواتير..

صدر عنه صوت نفاد صبر من بين أسنانه.. فتابعت:

ـ معظمها ليس سيئاً.. هناك فاتورة البيطري لمعالجته بيوتي. إنه بخير الآن. ثم هناك عدة الواح زجاج اخرى مكسورة في المستنبت، ولست ادري لماذا تتكسر دائماً.. أظن أن السبب هو عبث عدد من الصبية الذين ينجحون في التسلل الى حرم القصر لممارسة هواية اللعب والتكسير؟

ـ لا.. ليسوا صبية.. اتركي الامر لي، سأطلب من بلاكمور أن يراقب كل من يتصرف بغرابة.. وما هي الفواتير الاخرى؟

ـ إحداها من عامل الادوات الصحية بدل إصلاح المرحاض المسدود، آه.. وظهر له أن سبب رشح السقف يعود إلى وجود انبوب مهترىء.. ولقد أصلحه، لكنه قال إن بعض الأنابيب الاخرى في ذلك الجزء من القصر هي في حالة سيئة.. فإذا قررت أن تصلحها، فسأتصل به للتو.

ـ لن أستطيع تحمل أية إصلاحات في الوقت الحاضر، ليست ضرورية وملحّة تماماً.

نظرت فيلي إلى خارج النافذة حيث كان الثلج يتراكم في الخارج ببطء، والريح الباردة تضرب الأشجار، وقالت وهي تقطب جبينها:

ـ إذا استمرت الحرارة في الانخفاض أكثر من هذا، فقد تتجمد هذه الأنابيب.. وعندها ستكون في ورطة حقيقية.

رد دانيال متوتراً:

ـ لم أكن أعلم أنك تهوين التنبؤ بحالة الطقس. لماذا لا تلتزمين بمشاغل الإدارة فقط..؟ فعلى هذه المهمة تتقاضين أجرك، ولا دخل لك بسوى ذلك.

كبحت أوفيليا جماح غضبها، وكظمت غيظها، مذكرة نفسها بوجوب الإغضاء والتسامح مع حماقات طبعه السيّء.. فهي تعرف الآن أنه في مكان لا يحبه، ويقوم بعمل يكرهه، وهذا يكفي لأن يجعل المرء سيّىء الطباع من وقت لآخر. ثم أكملت حديثها بالقول:

ـ آخر فاتورة هي من المرآب. لقد أعادوا دهان جانب من سيارتك.. وواضح أنها كانت في حالة سيئة.

نظرت اليه بسرعة وهي تبتسم، وقالت محاولة ممازحته:

ـ قيادتك سيئة؟

مزاحها القصير، وقع عليه كحمل ثقيل من حجارة البناء فانعقد حاجباه الأسودان، ورقّ فمه حتى بدا كخط مستقيم ينذر بالشر ولكن لحسن الحظ، دخل احد الكلبين في تلك اللحظة يقفز مرحاً، ورفع أنفه الضخم الى يد دانيال، ليجذب اهتمامه لوقت قصير، ولما عاود اهتمامه باوفيليا، بدا أنه نسي مزاحها الثقيل الوقع على مسمعه.

ـ هناك حفل عشاء خاص سيقام الليلة في غرفة الطعام الرئيسية، فتأكدي من ابتعادك عن ذلك المكان.

سألت أوفيليا بحدة:

ـ ألا تريد الضيوف الاثرياء أن يلتقوا بأفراد من موظفيك الأقل شأناً منهم؟

استدارت نظرته السوداء لتحط عليها:

ـ أنت في مزاج غريب هذا اليوم.

إنه على حق، وتعرف هذا، وتعرف كذلك السبب. تلك المكالمة من أمها حركت فيها نوازع الشوق والحنين.. كل ما تريده الآن هو أن تكون في المنزل مع التوأم..

وبحزم.. أقفلت تفكيرها أمام أي شيء ما عدا ما يحيط بها الآن، فلا فائدة من التفكير هكذا. ربما حين يتم إصلاح السيارة، ستتمكن من زيارتهما لبضع ساعات ثمينة لها. وحتى ذلك الوقت من الأفضل ان تتوقف عن التفكير بالموضوع.

وقالت بحدة:

ـ إنني آسفة.. ما هو الشيء التالي على جدول العمل؟

ـ ستجري مناسبتان صغيرتان في القصر غداً. غداء عند الظهر، بعد الظهر سيأتي أعضاء من المجمع التاريخي المحلي لتنفيذ جولة تفتيش

خاصة.. ويوم السبت، سنقيم مأدبة، على طريقة القرون الوسطى، في القاعة الكبرى.

ـ آه.. أجل.. لدي كل الترتيبات مسجلة هنا. ستصل ثلاث مركبات تجرها الخيول وهي تنقل الضيوف... مؤسسة خارجية ستتولى تقديم الطعام والشراب، وسيعمد موظفوها الى استخدام المطابخ هنا لطهي الطعام... ويبدو لي أنه سيكون هناك مرح كثير.

قال وقد بدت عليه ملامح الضجر:

ـ هذا يتوقف على وجهة نظرك.. لكنها بكل تأكيد مناسبة مربحة، وهذا هو أهم شيء بالنسبة إلي.

ـ وهل سيرتدي الضيوف أزياء القرون الوسطى كذلك؟

ـ هذا عائد لهم.. أحضرت لهم حمل سيارة من الأزياء المعدّة من قبل شركة أزياء للمسرح، ووضعناها في غرفتين: إحداهما للنساء والأخرى للرجال. وبإمكان من يريد اختيار ما يشاء ودفع الأجر لاستخدامه، ونحن نأخذ عمولة على هذا بالطبع.

وبابتسامة خافتة قالت:

ـ بالطبع.. بدأت أفهم أن كل شيء يجري هنا يجب قياسه بالنسبة المئوية.. أترتدي أنت عادة الازياء؟

ـ أنا لا أحضر مثل هذه الحفلات.

قطبت أوفيليا جبينها وقالت:

ـ آه.. لكن، أظن أن العقد يقول...

ثم أبرزت صفحة العقد وأكملت:

ـ أجل... ها هي الفقرة التي أعنيها والتي تحتوي على الشروط التالية: «يدفعون أجراً اضافياً على شرط أن يكون اللورد كادوغان موجوداً».

أخذ العقد منها، ووجهه عاصف بالتجهّم وعدم الرضى. ثم قال:

ـ من كتب هذا العقد اللعين؟

ـ لست أدري.. كل شيء منظم قبل أن أصل.. ولست أرى أن الأمر

مهم هكذا، لقد وقعته، وهذا هو المهم. إما ان تحضر الحفل وتقبض ثمن ظهورك، وإلا ستضطر إلى دفع غرامة كبيرة جزاء غيابك.

رمى دانيال العقد على الطاولة.. وأخذ يلعن من بين اسنانه..

فقالت فيلي محاولة استرضاءه:

ـ انها امسية واحدة.. وستكسب مبلغاً ضخماً من جرّاء حضورها.

ـ إنه مرض نفسي يفتك بنفوس الناس! فما الذي يجعل شخصاً يحمل لقباً عرضة لمثل هذا الاهتمام؟

ـ لست أدري.. ربما لأن الناس يربطون اللقب بشيء من الامتيازات. يظنون أنك تمثل قيمة من السلطة والنفوذ.

صاح دانيال:

ـ إذن فهم مخطئون.

ـ ربما.. لكن من الصعب تبديل أفكار الناس وقناعاتهم الراسخة.. حتى الموظفون العاملون هنا يخشونك، ما عدا..

ـ ما عدا ماذا؟

ـ حسناً.. لدي انطباع أن بعضهم لا يحبك كثيراً..

ـ هذا ليس أمراً عجيباً.. فأنا لست كأخي ويليام، أليس كذلك؟ لم أعط قلبي وروحي لكادوغان هال، ولا أمضي كل دقيقة ليلاً نهاراً أحاول الحفاظ على كل شيء كما هو بالضبط.. وطبعاً كل من يعمل هنا، هو من القرية القريبة.

سألت أوفيليا بحيرة:

ـ وما الفرق في هذا؟

ـ أنا لست بالشخص الشهير جدّاً في القرية... وبعض المحليين لا يتوانون عن إظهار مشاعرهم بطريقة سلبية.

وللحظات متوالية، لم يكن لدى فيلي فكرة عما يتحدث.. ثم عرض شيء داخل رأسها، فنظرت اليه متفهمة:

ـ الزجاج المكسور في المستنبت.. والخدوش الكبيرة في سيارتك.. لم تكن حوادث عابرة أو عملاً تخريبياً بسيطاً؟

ـ لا.. بكل تأكيد.. وهناك عدة حوادث كذلك. كلها تافهة حتى الآن.. لكن من السهولة أن تصبح أسوأ.

ـ لكن... لماذا؟

هز رأسه بنفاد صبر، وقال:

ـ لأن الناس هنا، كما يبدو، ما زالوا يعيشون في القرن الماضي.. يكرهون سنّة التغيير، يحاربونه بأسنانهم وأظافرهم.

قطبت اوفيليا حاجبيها وقالت:

ـ وأنت، أتحاول القيام بتغييرات جذرية؟.. هل هذا حقاً ضروري؟ قلت إن شقيقك كرس حياته للقصر، وبكل تأكيد نجح في ادارته؟

ركّز دانيال نظره إليها وقال:

ـ هدفه الرئيسي في الحياة كان الحفاظ على كادوغان هال كما هو تماماً.. وبكل امتعاض، تنازل ليفتح القصر امام الناس، ولأن هذا هو الجزء الأهم من مدخول الاملاك. لكنه رفض أن يفعل أكثر من هذا.. رفض أي عمل تجاري من اي نوع، ما عدا غرفة شاي صغيرة، ودكان هدايا يقوم في مؤخرة المنزل.

ـ حسناً.. أعتقد أن عليك إبداء الاعجاب بمثل هذا التصرف، فالكثير من الناس اليوم لا يفكرون سوى بالمال.

ـ آه.. كنت معجباً بتصرفه، لكن ما لم أدركه هو كيف انقلبت نتيجة ذلك إلى فوضى مالية. لم أكتشف أن ليس هناك من دخل يكفي لتغطية مصاريف القصر، إلا بعد أن استلمت الحسابات واطلعت عليها.

ـ لكن.. لا بد من أنه كان يعرف هذا؟

ـ ويليام كان من النوع المثالي.. يرى فقط ما يريد أن يراه، وفي هذه الحال كان يرى أن يحافظ القصر على مجده القديم... لا تمسه النزعة التجارية التي سار عليها الكثير من أصحاب القصور القديمة للحفاظ عليها وإبقائها كما هي. والمحليون كانوا يحبون هذا منه، فهذا ما كانوا يريدونه بالضبط.

فكرت أوفيليا بضع لحظات، ثم قالت:

ـ لكن.. لا بد من أنهم يدركون أن على القصر توفير مردود يكفي لتصليحاته، وإلا، فلماذا لا تشرح لهم الوضع؟

ـ أستطيع هذا.. لكنني أشك في أن يكون لهذا أثر في تصرفاتهم.. معظمهم لديه نفس وجهة النظر المحدودة التي كانت لويليام ويقاومون كل تغيير بشكل آلي. يريدونني الاستمرار على الطريقة عينها تماماً، وحين احاول التغيير، يعلمونني، وبطريقة وقحة أنهم لا يحبون هذا إطلاقاً.

ـ لكنك لم تفعل شيئاً متطرفاً حتى الآن.. أليس كذلك؟

ـ ليس بعد.. لم يكن أمامي وقت.. كل ما فعلته هو أنني وضعت المنزل قيد الاستخدام الجيد خلال فترة الشتاء وجعلته مقراً لتنظيم احتفالات على اساس تجاري. لكن هذا لا يكفي.. ولهذا قبلت المشاركة في مشروع قد يقلب مشاكلنا المالية رأساً على عقب، تلك المكالمة الهاتفية ذلك المساء أكدت لي أن المشروع بدأ بالانطلاق.

ـ وماذا تخطط لتفعل مستقبلاً؟

ـ هناك قسم واسع من الاملاك خلف القرية لا يستخدم للزراعة ولا للتشجير.. وانا افاوض شركة تريد استئجار الأرض، لإنشاء ملاعب غولف عليها، على مستوى رفيع جداً يكفي لاجتذاب دورة سياحية رئيسية. وستقيم كذلك نادياً فيه الكثير من وسائل الراحة الرفيعة المقام، بركة سباحة، ملاعب تنس، ومركز صحي ضخم. وإذا نجح هذا، ستنال الأملاك نسبة مئوية من الارباح، إضافة إلى مبلغ ضخم كإيجار للأرض. وهذا سيكون تغييراً له تأثير كبير على وضعنا المالي.

ـ ألا يفهم أهل القرية هذا؟

رفع دانيال حاجبيه بسخرية وقال:

ـ أعتقد أنهم يفهمون.. لكنهم ما زالوا يعارضون المشروع كله.. يظنون أن قريتهم سيجتاحها لاعبو الغولف، ومرشدو المركز الصحي، وأن الناس سيبدأون بشراء الأملاك في القرية لاستخدامها كأكواخ لنهايات الاسبوع وهذا في النهاية سيخرج القرويين من قريتهم.

ـ أيمكن أن يحدث هذا؟

ـ ممكن.. مع أنني سأحاول جهدي أن أمنع حدوثه.

نظرت أوفيليا إليه بدهشة:

ـ أتهتم بما سيحدث لهم؟

ـ لأنني أقدّر وجهة نظرهم، وأشعر بشيء من المسؤولية نحوهم.. لكنني ما زلت مصمماً على المضي بمشروعي، مهما تضاعف عدد الحجارة التي يرمونها على زجاج المستنبت تعبيراً عن احتجاجهم وعدم رضاهم.

رن جرس الهاتف. حين أنهت الرد، كان دانيال قد غادر المكتبة.. فأخذت أوفيليا تفكر بالحديث الذي جرى بينهما وقررت أن تقف الى جانب القرويين، فلو كانت تعيش في قرية جميلة هادئة، لم تتغير منذ قرون، فبكل تأكيد لن ترغب في أن يكون هناك مجمع سياحي فخم على باب بيتها. القرويون على حق.. لكن هذه ليست مشكلتها، وستذهب قبل وقت طويل من حل المشكلة في أي اتجاه كان. والأفضل إبعاد التفكير بالموضوع عنها، والتركيز على عملها.

صباح السبت.. استيقظت فيلي، تتثاءب بأجفان متثاقلة.. وقررت البقاء نصف ساعة أخرى في السرير. ثم تذكرت ان اليوم هو موعد حفلة العصور الوسطى.. وبتأوّه قصير، سحبت نفسها من تحت الأغطية، واتجهت نحو الحمام... من المؤكد أن تبرز أمامها مئة مشكلة ومشكلة صغيرة ملحة للتعامل معها. وما من شك أن دانيال ثورب يتوقع منها أن تكون موجودة للتعاطي المباشر والكفيّ مع كل منها.

ما إن حل موعد الغداء، حتى كانت النساء المنظفات قد أنهين عملهن في تنظيف الغرف التي ستستخدم ذلك المساء.. وستكونّن عند المساء جاهزات للعمل كخادمات بين الحضور.

مع اقتراب المساء بدأت اوفيليا تحس بالرضى للطريقة التي تسير فيها الأمور.. كل شيء يسير حسب المخطط، ولن تكون غلطتها إذا لم تنجح السهرة. فالأزياء وصلت، ووضعت في الغرفتين المحددتين، وعمال الطعام وصلوا ويستخدمون المطابخ الآن، تحت عين السيدة ماكومبر

الثاقبة.

أولى العربات وصلت عندما بدأ الظلام بالهبوط، وتنهدت فيلي ارتياحاً، إذ بامكانها الآن أن تنسحب الى جزء هادىء من المنزل، لترفع قدميها الى الأعلى، وترتاح خلال ما تبقى من الامسية. لكن، في هذا الوقت عينه، وصلت السيدة ماكومبر وهي ترغو وتزبد غضباً، ودلائل القلق بادية على وجهها. وقالت على الفور:

ـ إحدى النسوة كانت ستساعدنا في تقديم الطعام، أصابها الصداع.. وهذا يعني أننا بحاجة إلى بديل عنها. وإلا ستكون الأمور صعبة.

فسألتها أوفيليا باستغراب:

ـ ألا يمكنك إحضار أحد؟

ترددت السيدة ماكومبر قليلاً ثم قالت:

ـ ليس.. من السهل.. هذه الأيام إحضار من يعمل هنا.

تنهدت فيلي.. لا بد أن هذا بسبب الخلاف المستمر بين دانيال ثورب واهل القرية!

ـ ألا يمكنك تدبير الأمر مع النساء الموجودات معك؟

ـ حتى بدون غياب السيدة، كنا بحاجة الى المزيد من المساعدات، وقلت للورد كادوغان هذا.. كنا نحتاج الى اثنتين أخريين، لكنه قال إنه لا يستطيع دفع أجرهن.

سخرت فيلي قائلة:

ـ إنه هاجس الاقتصاد!

اضطرت فيلي إلى إخفاء ضحكتها حين شاهدت الصدمة على وجه المرأة، التي سارعت إلى إبداء اقتراحها، بأمل كبير وهي تخاطب فيلي قائلة:

ـ أعتقد أنك لا تستطيعين المساعدة؟

ـ أنا...؟

ـ نستطيع إيجاد زيّ يلائمك، وليس العمل صعباً.. سأشرح لك بالضبط ما يجب أن تفعلي.

ومع أن فيلي لا تذكر أنها وافقت على الفكرة، إلا أنها سرعان ما وجدت نفسها ترتدي ثياب خادمة. لم يكن الثوب أنيقاً.. فلا يلائمها ارتداء المخمل الثقيل والألوان البرّاقة.. اما الياقة المربعة، والتنورة الطويلة، فهما رديئتان جداً، تحتهما بلوزة طويلة الأكمام مربوطة بشرائط عند العنق... لم تعتقد أن هذه الازياء هي فعلاً أصيلة، من الناحية التاريخية، ولا الطعام الذي سيقدم للضيوف سيعكس الطعام الحقيقي الذي كان يقدم في العصور الوسطى.. لكن، لن ينتبه أحد لهذا، ولن يعارض إذا انتبه. فالضيوف قادمون إلى هنا للتمتع والتسلية، ولن يلقوا بالاً لمثل هذه التفاصيل التافهة.

بالنسبة إلى فيلي كان المطبخ يبدو في فوضى كاملة.. لكن، بالنسبة إلى السيدة ماكومبر، التي كانت تشرف على كل شيء، فقد كانت راضية عن سير الأمور، وكان الطعام قد بدأ يرسل الى القاعة الكبرى حين دخلت فيلي إلى المطبخ. فقالت لها السيدة ماكومبر:

ـ ستخدمين الطاولة الرئيسية.. اسرعي قدر استطاعتك.. وعودي لأخذ صينية اخرى.

أسرعت فيلي الى القاعة الكبرى، لكنها حين دخلتها توقفت مترددة لتستوعب المنظر. بدت القاعة متغيرة تماماً مليئة بجو ملون حيّ، بدلاً من أن تكون مجرد مكان واسع مؤثر فيه الكثير من الأثريات. واللافت في الإنارة تلك الشموع التي كانت جاهزة إذ لم يكن هناك إنارة سواها، وهي تنتشر صفوفاً متراصة فوق شمعدانات معلقة في الجدران، وفوق الطاولات. انوارها المتراقصة، كانت تملأ القاعة بنور خافت، والزوايا، مع السقف، تتلفح العتمة وتضيع في الظلام، فأنوار الشموع لن تصل اليها.

إحدى الطاولات كانت محضّرة في منتصف القاعة، بينما صُفت الطاولات الاخرى على الجانبين، مع الحفاظ على فراغ مربع الشكل في الوسط.. أكثر الحضور اختاروا استئجار الأزياء القديمة، ليشكلوا مزيجاً رائعاً من الالوان. والأزياء بدت قاتمة اللمعان تحت ضوء الشموع.. كان

الجو عابقاً بالدخان، والدفء، وتتصاعد الأصوات تحيط بها وهي تندفع نحو الطاولة الرئيسية.

في الوسط تماماً، كان يجلس دانيال ثورب.. أول شيء لاحظته فيلي، إنه واحد من القلائل الذين لم يرتدوا ما يناسب الحفل، إذ كان يرتدي بنطلون جينز وقميصاً عادياً وسترة من جلد اسود، فتمتمت من بين اسنانها:

ـ مفسد المتعة!

ثم انجذبت عيناها إلى من كان يجلس حوله.. وهي تضحك في سرها، تساءلت عما إذا كانوا قد دفعوا المزيد من المال ليكون لهم شرف الجلوس الى جانب اللورد كادوغان. وبنوع من التحدي.. دفعت أوفيليا بقصعة حساء أمامه.. وتمتمت في اذنه:

ـ أول وجبة لك سيدي اللورد.

أجفل دانيال واستدار قائلاً:

ـ فيلي...؟

ثم عبس:

ـ ماذا تفعلين بحق الجحيم؟

ـ في هذه اللحظة بالذات.. أقدم لك الحساء.. آسفة لا أستطيع التوقف.. فالناس يحبون الحساء ساخناً.

وهي تغادر القاعة بالصينية الفارغة كانت تحس بعيني دانيال تخترقان ظهرها وتنفذان إلى خفايا جسدها. وحين عادت بعد قليل لجمع الأطباق الفارغة، كان مستعداً لها، فأمسكت يده القوية بمعصمها وهي تمد يدها لتأخذ الحساء الذي لم يمسّه.

ـ هل هذا نوع من المزاح؟

فأجابته اوفيليا على الفور:

ـ بالطبع لا.. وأتوقع أن أقبض أجر العمل الذي أقوم به هذا المساء. مثلي مثل غيري.

ـ لكنني أدفع لك اجراً مرتفعاً!

ـ لكن هذا وقت إضافي.. على فكرة، هل هذا حقيقي؟

واشارت إلى رأس دب برّي على طبق نحاسي امامه فكاه مفتوحان، أنيابه بارزة وعيناه تلمعان.. فرد عليها:

ـ لا.. انه من البلاستيك.

ـ اشكر السماء لهذا! مع ذلك، فهو يكفي لمنعك من تناول العشاء، مع أن شهيتك تبدو قليلة، فأنت لم تذق الحساء، ولن ترضى السيدة ماكومبر بهذا.

ابتعدت اوفيليا عنه حال أن أنهت كلامها دون سماع رده الخافت المنخفض، وعادت الى المطبخ لتقديم الوجبة التالية.. وحين بدأت بأخذ الاطباق الفارغة مرة أخرى، كان زيها الثقيل قد بدأ يلتصق بجسدها المبلل بالعرق ويبرز مشهداً مثيراً للإغراء، فقد اخذ الجو في القاعة يزداد حرارة، وأحست اوفيليا ببشرتها تلتهب وهي تعود ثانية الى المطبخ، لتتناول كوب شراب وتزدرده دفعة واحدة، أحست بعده بالانتعاش، والتقطت الوجبة التالية مسرعة بها إلى القاعة، حيث سألها دانيال وهي تقدم له الدجاج:

ـ أين السيدة جاكسون؟

ـ أصيبت «بالصداع»، ولم تستطع السيدة ماكومبر أن تجد بديلة عنها، فاستخدمتني.

رفعت فيلي نظرها نحو الرواق الذي يجلس فيه الموسيقيون، في آخر القاعة الكبرى، وعلى الرغم من تعالي الاصوات المرتفعة فقد استطاعت سماع أصوات الغناء.. فسألت:

ـ من هناك؟

ـ إنه كورس الجمعية النسائية، يغنين مزيجاً من الأغاني القديمة والفولكلورية.

ـ أيجب أن تدفع أجرهن؟

ـ مجرد أجرة السفر.. وتبرّع للجمعية.

ـ كان الأرخص لك أن تستخدم مسجلة.. وعلى أي حال لا أحد يراهن، وهو يكاد يسمعهن بشقّ النفس.

ـ لكن قدرة المسجلة على توفير الجو نفسه ضعيفة للغاية.

ـ هذا صحيح.. لكنك أنت من يتذمر دائماً من دفع المال، او على الأقل من قلة وجوده. أحاول فقط أن أقدم طريقة للتوفير والمزيد من الربح. آه... يجب أن أذهب، السيدة ماكومبر تشير اليّ بذعر من على الباب.

لحقت اوفيليا بالسيدة ماكومبر لتحمل الخضار، كانت قد لاحظت ان دانيال لم يمس طعامه بعد، ولا يبدو عليه انه يحاول أن يكون اجتماعياً مع من جلس حوله. وهي تضع السلطة امامه همست في أذنه:

ـ الأفضل لك، أن تبدأ الحديث مع بعض هؤلاء الناس.. وإلا، قد يقررون المطالبة باسترجاع مالهم!

رد بغضب:

ـ لا تلقي علي المحاضرات! لن أتحملها بعد الآن!

لكنها لم ترتدع:

ـ تناول قليلاً من الطعام، علّ تفكيرك ينجلي.

ثم هربت قبل أن يرد رداً سيئاً.

ما إن اخذت توزع أطباق الفاكهة التي كانت تشير الى نهاية الطعام، حتى كانت قدماها تؤلمانها، وتتطلع بشوق حقيقي للهرب من الحرارة والضجيج الى هدوء سريرها. وبما أن الغد هو يوم أحد، فربما لن يمانع اللورد السيد والحاكم لو أنها تأخرت في النوم. وحين وصلت الى جانبه، وضعت الطبق أمامه، ثم بدأت تتراجع بسرعة، لكنها لم تكن سريعة بما يكفي، وإذا بها تشعر بيده وقد أمسكت بخصرها، وبعد لحظة وجدت نفسها تجلس ملاصقة له.

حدث هذا بسرعة مذهلة حتى أن رأسها بدأ يدور، منذ لحظة كانت تقف على قدميها، أما الآن فهي على صلة وثيقة مع رجل قوي قاس، ذراعه لا تزال تلتف حولها بشدة وإحكام، ولا يبدو لها أنها قادرة على المقاومة والإفلات من مخالبه.. واحمرّ وجهها حرجاً.. ثم تمتمت:

ـ ماذا تفعل؟

حولها، كل الناس أداروا رؤوسهم باتجاهها وهم يبتسمون ويضحكون.. لا بد أنهم ظنوا هذه الحركة هي جزء من التسلية.. وتمتم دانيال بصوت منخفض:

ـ هذا أحد الامتيازات التي يحصل عليها سيد المكان.. فمسموح لي أن اختار من أشاء من الخادمات.

ردت اوفيليا حانقة:

ـ أنت تختلق هذا! دعني أذهب!

لكنه لم يكن ينوي أن يتركها.. بل أنه لف ذراعه الاخرى حولها كي لا يبقى لديها أمل بالخلاص منه، وجهدت ليبقى صوتها منخفضاً كي لا يسمعها من حولهما:

ـ لماذا تفعل هذا؟

ـ أنا ببساطة أدخل الى روح هذه الأمسية.. وهذا ما أمليت عليّ أن أفعله... أليس كذلك؟

ـ قلت لك أن تكون اجتماعياً مع من حولك، لا أن تمسكني، وتجعلني أحس، كأنني.. كأنني...

ـ كأنك ماذا... اوفيليا؟

لكنها قررت أن لا تنهي جملتها تلك، وقالت:

ـ ما من أحد غيرك أمسك بخادمة.

وعندها جذبها نحوه أكثر وهو يردد:

ـ هذا لأنك الوحيدة دون الخامسة والاربعين... لكن الكثير من الرجال يبدو عليهم أنهم كانوا يتمنون لو فعلوا هذا قبل أن افكر أنا به... انت رائعة.. اوفيليا..

قامت فيلي بمحاولة للخلاص، لكن دون جدوى، فسألته:

ـ كم تنوي تركي جالسة هكذا؟

لم يرد، وكأنه يتمتع بالسيطرة عليها، ثم قال:

ـ آه.. أظن... طوال ما تبقى من السهرة.

صاحت:

ـ ماذا؟

ـ كما أنني لا أمانع في أن تستمري في المقاومة والحركة . . فهذا في الواقع . . . أمر مثير .

أصبح وجهها شديد الاحمرار، وجمدت في جلستها . . محاولة تجاهل ضربات قلبها المضطرب، وهي تدعو الله ان يجعل دانيال ثورب يسأم من لعبته التي قرر أن يلعبها معها، ويفك أسرها، ويمنحها حرية الابتعاد عنه .

* * *

٥ ـ كوني جميلة واصمتي!

حين أنهى الجميع تناول طعامهم، ورفع آخر الاطباق، أدارت فيلي رأسها وهي تنظر بقلق الى دانيال .

ـ لقد انتهت الحفلة . . هل ستتركني الآن؟

ـ قد يكون تناول الطعام قد انتهى . . لكن التسلية قادمة .

ـ التسلية؟

هز رأسه قائلاً :

ـ تمثيليتان تصف احترافيتين . . وشاب محليّ، ربما سيقوم بإسماعنا بضع أغانٍ مشهورة .

ـ وكم سيأخذ هذا من الوقت؟

رد بمرح :

ـ لست ادري . . قدر ما سيأخذ!

ـ لكن . . لا أستطيع الجلوس هنا طوال السهرة، وأنا محط أنظار الحضور!

ـ لماذا لا؟ استرخي وتناولي الشراب .

تساءلت فيلي كيف لها أن تسترخي بحق السماء وهو يمسكها سجينة . . . ربما من الأفضل لها أن تأخذ بنصيحته وتتناول كأس عصير يرطب حنجرتها التي جفت . . . إنها بحاجة فعلاً الى ما ينعشها ويعطيها القوة لما تبقى من السهرة!

وهي ترتشف الشراب، تقدم ستة من الأولاد، ينظفون الباحة المربعة بين الطاولات . كلهم يرتدون الازياء الملونة الزاهية، وتبدو عليهم إمارات

الخفة والنشاط. وقال لها دانيال:

ـ سيقدّمون العاباً بهلوانية، ليسوا لامعين تماماً لكنهم ممتلئون حماساً.

كان على حق.. فقد قام الصغار بالدوران والتقلّب حول القاعة الى أن أحست فيلي بالدوار وهي تراقبهم.. على الفور تعرفت على الرجل الذي دنا من الحضور بعد الفراغ من الالعاب البهلوانية مباشرة، انه نيفن بلاكمور، ذو الوجه الدميم لكن المليء بالابتهاج.. فسألت بفضول:

ـ ماذا سيفعل هذا الرجل؟

ـ انه يقوم بالعاب الشعوذة.. فهو رجل متعدد المواهب.

كان مرة أخرى على حق. وقدم نيفن بلاكمور عرضاً سحرياً سريعاً، ومتحدياً، أثار عاصفة من التصفيق والهتاف من الجميع، بمن فيهم فيلي.. ثم خيّم الصمت على القاعة بدخول شاب صغير أسود الشعر، ليقف وسط الساحة، وفي ذراعه غيتار. حدقت إليه فيلي، ثم قالت باستغراب:

ـ يبدو لي منظر هذا الشاب مألوفاً جداً. فمن هو؟

ـ إنه شاب من القرية.. هذه أول مرة نستخدمه فيها، حتى أنني لا أعرف اسمه. بلاكمور هو من رتب كل أمور التسلية.

جلس المغني إلى كرسي مرتفع، وبدأ اول اغنية له.. يرافق اغنيته بعزف رائع على الغيتار.. صوته رخيم جميل، لكن وجهه كان يكتسي بالعبوس بشكل يتنافر مع الكلمات الرقيقة للأغنية العاطفية التي كان يغنيها.

امعنت فيلي النظر مجدداً في شعر الشاب الاسود وعينيه، ثم استدارت الى دانيال، وهمست:

ـ إنه يبدو... حسناً.. هو مشابه لك تماماً.

رد دانيال بحدة:

ـ هذا خداع نظر سببه الشموع.

فردت أوفيليا بارتياب:

ـ ربما.

أنهى المغني وصلته الفنية، ثم وقف لينحني بعد عاصفة الاستحسان والتصفيق التي سمعها.. بدا وكأنه سيغادر القاعة فوراً.. لكنه في آخر لحظة، وقف ليلقي نظرة قاسية سوداء نحو دانيال قبل أن يستدير ويخرج.. ولم تكن فيلي بحاجة إلى أن تكون قارئة افكار لتعرف أن دانيال كان منزعجاً بشدة من ظهور الشاب.

آخر المشاهد كان لآكل النار.. وأنهى تلك السهرة بنهاية رائعة، باندفاع ألسنة النار تمر فوق جسد اللاعب النصف عارٍ، ثم تختفي داخل حلقة. وحين غادر القاعة، وسط التصفيق الحاد، أحست فيلي بأسى، لأن الامسية انتهت. ولكنها ستتمكن الآن من أن تتحرر من قبضة دانيال، الذي ارخى ذراعيه من حولها، لتتزلق قدماها نحو الارض، التي بدت لها انها تتحرك قليلاً.. فرفت عينيها، وهي تقول لنفسها، إن سبب دوارها هذا هو الجو العابق بالدخان، وهو الذي يجعل كل شيء يبدو كالضباب أمامها..

وضع دانيال يده تحت ذراعها وهو يقول:

ـ سأوصلك الى غرفتك.

بسرعة حررت نفسها منه:

ـ لا.. لن تفعل.. ليس الأمر ضرورياً.

ـ صحيح، ليس ضرورياً، لكنه عذر جيّد لي لأغادر المكان.

لم تستطع اوفيليا الابتعاد عنه وهما يغادران القاعة.. هل ينوي المضي معها حتى باب غرفتها؟ يبدو أنه سيفعل.. وما الذي تستطيع فعله؟ لا شيء اطلاقاً.. فمحاولة الجدل معه عقيمة، والافضل لها ان تستمر هكذا معه، ثم تقول كلمات وداع مؤدبة له حين تصل، على أمل أن تكون هذه هي النهاية.

أخيراً وصلا إلى باب غرفتها، ومدت يدها نحو المقبض.. لكن يد دانيال أطبقت عليها كذلك، وفي نفس الوقت، ليفتحا الباب معاً.. بطريقة ما. فقالت بعصبية:

ـ آه.. عمت مساء.

لكنه لم يكن يقف الى جوارها، بل أصبح داخل الغرفة. وبسخط عارم، لحقت به، ثم أدركت أن هذه هي أول غلطة رئيسية لها، لأنه أقفل الباب وراءها على الفور.. فصاحت:

ـ عذراً! أنا من يجب أن أكون داخل الغرفة، وانت من الجهة الاخرى للباب بكل تأكيد.

ـ لكنني أحب هذا الترتيب أكثر.

ـ حسناً.. أنا لا أحبه!

سألها بكسل:

ـ وماذا ستفعلين؟

لم تكن متأكدة.. كانت تقف وظهرها الى الباب الموصد وفكرت بأن تفتحه وتهرب. لكنها أحست بساقيها تصطكان وأنفاسها تتغير بشكل غريب. وتحداها دانيال بصوت ناعم:

ـ هل ستحاولين الهرب هذه المرة؟

وتقدم منها خطوة إضافية فبدأت تحس بضيق غريب في حنجرتها. وبصوت منهدج، محاولة التحدي، ردت:

ـ قد... قد أفعل.

ـ أجل.. قد تفعلين، ولكنني لا أظن هذا.. أتريدين معرفة لماذا اظن هذا؟

واضح أنه لن يقول لها السبب، حاولت التراجع، ناسية أن الباب وراءها، وضغط الخشب القاسي على ظهرها، يقطع تراجعها، فأطلقت صرخة رعب قصيرة.

سألها دانيال هامساً وهو يقطب جبينه:

ـ لماذا أنت متوترة هكذا؟ أنا لست مخيفاً الى هذا الحد.. صحيح؟

كان مخيفاً بكل تأكيد.. لكن هذا كان أقل ما يواجهها من مشاكل الآن.. لا يجب لهذا أن يحدث أبداً... هذا خطأ..

اطبقت يده على كتفها بخفة. ففقدت اوفيليا صوابها... حتى هذه اللمسات الخفيفة اشعلت فيها رد فعل دافيء. ثم طغى على السطح

احساس بالواقع.. فشدت على أسنانها.. لا تستسلمي هكذا.. هذا الرجل خبير.. وتعرفين كل شيء عن مثل هذه المواقف، والى ما تنتهي إليه!

قفز نبض يضرب في حنجرتها، ثم اخذ يضرب بسرعة أكبر.. فوضع أصابعه فوق مكان النبض لحظة، كأنه مسرور للاحساس به.. أو ربما مندهش قليلاً من قوة استجابتها له، وتمتم يسألها:

ـ أتعلمين لماذا صعدت معك إلى هنا؟

هزت رأسها بغباء، فالتوى فمه بابتسامة غريبة قائلاً:

ـ لأنني اعتقدت أنك متعبة جداً، بحاجة إلى من يساعدك على الدخول الى فراشك.. أترغبين في هذه المساعدة اوفيليا؟

ـ لا!

ـ ربما تقولين الحقيقة، وربما لا. أعتقد أنني سأنقذ ما كنت أصلاً أنويه، ثم أرى كيف تسير الأمور.

ـ أنا لا أحتاج إلى مساعدة.

تجاهلت الدوار الذي يجعل رأسها يدور، ويجعلها بالتالي تترنح قليلاً. وبعد لحظة، حملها بين ذراعيه.. وقبل ان تتمكن من الاحتجاج، سار بها عبر الغرفة نحو السرير..

الموقف يسير من سيء الى اسوأ. ويجب عليها فعلاً أن تتمالك نفسها، أن تفعل شيئاً قبل أن يخرج كل شيء عن السيطرة. وسألها:

ـ أتشعرين أفضل حالاً وانت مستلقية؟..

ارتجفت فيلي.. كم من السهل أن تنسى ما أقنعت نفسها به طويلاً، وما كبحته من عاطفة حتى ظنت أنها لم تعد موجودة! كم يمكن ان يكون جسدها خائناً لها لو اعطته الفرصة.. الامر مخيف جداً.. هذا الجانب من طبيعتها الذي قاومت بشراسة لتكبحه وتبقيه سجيناً.. وأخافها حتى الموت ان تفقد السيطرة على نفسها.

نظر إليها دانيال متمتماً بصوت تشوبه الحدة:

ـ تنظرين الي وكأنني انقلبت الى شيطان.

شيطان؟ نعم.. هذا ما هو عليه.. هل إن الشيطان أرسله ليوقعها في نفس المصيدة مرة أخرى.. أواه.. يا الله، ألن تتعلم أبداً؟ ليلة واحدة من التهور ثم سنوات من معاناة النتائج! وتذكرت توأميها. فبدأت الحرارة تتلاشى من جسدها، وبدأ رأسها يثبت وتفكيرها ينجلي.. وأخذت تتساءل كيف يمكن لها أن تكون حمقاء بما يكفي لتصل الى مثل هذا الموقف... وكيف بالتالي ستتمكن الآن من الخلاص!

بدأ دانيال يتراجع قليلاً.. بارتياح عميق، أدركت أنه ليس بالرجل الفاقد الحس، مهما بلغ عدد عيوبه الأخرى. لقد التقط بوضوح الإشارات التي كان تفكيرها يرسلها إليه لكنه لم يبدُ سعيداً لهذا، فقد تجهم وجهه، وأصبحت عيناه باردتين مخيفتين. ثم بادرها بالقول:

- أتفعلين هذا دائماً؟ لو كنت تفعلين، فستقعين في متاعب عميقة مستقبلاً.. فالكثير من الرجال، ليسوا مستعدين لأن يكونوا... متعقلين..

وتمتمت اوفيليا:

- أنا آسفة.. أعلم أن الأمر صعب عليك.. وأنا لم اقصد..

- ما الذي قصدتيه بالضبط؟ لست مراهقة ساذجة فيلي.. ولن تستطيعي التذرع بالجهل. كنت تعرفين تماماً ما تفعلين وتعرفين إلى أين تسير الامور.. فإذا لم تكوني راغبة في المضي حتى النهاية، لماذا لم تقولي هذا منذ البداية؟

ردت متلعثمة أمام غضبه:

- أنا... كنت مرتبكة.. مشوشة التفكير... انا...

- حسناً... توقفي عن تقديم الذرائع الواهية... فلست أهتم بسماعها.

وقف دانيال متجهاً نحو الباب، ثم التفت ليطلق نظرة حادة نحوها.. وظنته سيقول شيئاً.. لكنه استدار فجأة وخرج، فبدت لها الغرفة فجأة فارغة، بعد أن تحررت من وجوده المسيطر. أرادت أن تبكي.. لكنها لم تستطع.. وكأنما الدموع محجوزة في الداخل مع كل المشاعر المضطربة

التي تطوف في داخلها. دفنت وجهها في الوسادة، وتمنت بتعاسة لو أن قدميها لم تدوسا كادوغان هال.

في الصباح، كان لها الصداع المؤلم الذي اختلقته لنفسها ليل أمس.. لكنها على الأقل كانت قادرة على التفكير القويم.. وأقسمت لنفسها: أبداً.. لن يحدث هذا ثانية! من الآن وصاعداً، ستبقى على طورها، ولن تقع في حبائل رجال ذئاب مفترسين... ودانيال ثورب هو من هذه الأصناف.

مع أنها تظن أن ليس عليها القلق منه بعد الآن. فبعدما حصل بالامس، واضح لها ما ستكون خطوته التالية.. وكل ما تبقى الآن هو ان يلفظها جانباً وينتهي. استحمت، وارتدت ثيابها، ومررت مشطاً على خصلاتها الحريرية اللماعة، ومدت يدها الى حقيبة الماكياج... ثم تراجعت.. ما الفائدة؟ لن يهتم أحد بمظهرها هذا الصباح. تنفست بعمق، رفعت كتفيها، وغادرت الغرفة.. لقد حان وقت المواجهة.

لكنها لم تجد دانيال، واخبرها ماكومبر أن السيد اللورد خرج في نزهة على جواده.. لأكثر من ساعة، اخذت تتجول في المكان باضطراب، وهي تنتظر عودته. وحين شاهدته أخيراً من بعيد يتقدم نحو المنزل، علت التقطيبة السوداء وجهها... صحيح أن دانيال ثورب، لا يحب اللقب او ملكية هذا القصر الفخم، لكنه بكل تأكيد يبدو تماماً سيد المقاطعة، وهو يمتطي صهوة هذا الجواد الجميل، وحوله كلباه الكبيران.

وما هي إلا لحظات حتى كان يدخل عليها المكتبة... وكانت فيلي قد حضّرت كلمة، طارت فور رؤيته من رأسها... ووجدت صعوبة غريبة حتى في التنفس. بطريقة ما، جمعت شتات نفسها ووقفت.. تواجهه بقوة.

- ظننتك قد ترغب في رؤيتي هذا الصباح.

- لماذا؟ صحيح أنني لا اعترض على رؤيتك، طبعاً.. أنت دائماً مثار اعجاب الناظر، واظن أنني قلت لك هذا من قبل فيلي.

تفرست فيه من تحت أجفانها... ما الذي يحاول أن يفعل؟ أن

يحصل على انتقامه منها بالسخرية المتعمدة؟ ثم كسرت حيرتها بالقول:

ـ أعتقد أنك تريدني أن اترك العمل.. وأغادر على الفور!

بدت عليه الدهشة، كأنه لا فكرة لديه اطلاقاً عما تقوله.. ثم صفا وجهه، وابتسم:

ـ آه.. فهمت ما تعنين... تظنين أنني سأطردك بعدما حدث ليلة امس؟ لكن هذا سيكون تصرفاً تعسفياً كما كان يحدث في العصور الوسطى! ألا تظنين هذا؟

ـ ظننت هذا سيكون أفضل حل.

ـ لكن... إذا طردتك، سأفقد ادارية كفية.. وأين سأجد البديل، وفي وقت قصير؟

تحركت فيلي باضطراب.. حتى الآن لم تدرك كم كانت تعتمد على الرحيل.. الابتعاد عن القصر... وعن دانيال ثورب.. وهو الآن يقول لها إن هذا لن يحدث.. لذا لم تكن واثقة بما هو شعورها حول الأمر. بدأت تحس بالارتباك، وهذا ما لا يعجبها.. فهي تدرك ان الوضع خطير لها، وقالت ببطء:

ـ تريدني أن ابقى؟

ـ بل ستبقين.. لقد وقّعت عقداً.. أتذكرين؟

من غير الممكن أن تنسى! إنه يمسك بكل مستقبلها في راحة يده. لو تركته الآن، فسيستخدم نفوذه ليدمر سمعة وكالتها تماماً، ولن تستطيع تحمل حدوث هذا... فأمامها مسؤوليات مالية كبيرة، كلها ترتبط بنجاح واستمرار الوكالة.

ردت ببرودة:

ـ إذن.. من الأفضل ان أتابع العمل. ماذا تريدني أن أفعل هذا الصباح؟

نظر اليها مفكراً، فارتجفت في داخلها من قوة نظرته. وأخيراً قال:

ـ أريدك ان تجلسي لي... قررت أن أرسم لك لوحة.. آنسة اوفيليا ليندن.

كان هذا آخر شيء على وجه الأرض تتوقعه منه.. فرفت عيناها عدة مرات، لا بد أنه يمازحها.. ما سبب رغبته في رسمها؟ وأخيراً ردت بحزم:

ـ أفضّل أن لا تفعل ذلك.

ـ ما الذي يجعلك تظنين أنني أترك الخيار لك؟ أنت موظفة لدي.. وهذا يعطيني الحق في أن أملي عليك ما يجب أن تفعليه خلال ساعات العمل.. وهذا الصباح... أريدك أن تتواجدي في مشغل رسمي.

نظرت إليه بذهول.. لم تقابل من قبل من هو غير منطقي مثله! ويبدو أنه يظن نفسه قادراً على ان يأمر من هم حوله بما يشاء، وعليهم أن يفعلوا تماماً ما يريد. لكن وهج دفاعها لم يدم طويلاً.. حين فكرت قليلاً، كان كل شيء في صالحه.. بامكانها إما ان تفعل ما قال.. او ان تترك العمل.. وتتحمل النتائج الوخيمة على سمعة وكالتها التي أملت عليها تحمّل ما تحملته.

وخاطبته بالقول:

ـ هل سيطول هذا؟

ـ انه متوقف تماماً عليك.

ـ ماذا تعني؟

ـ كم سيطول بك الأمر لترسمي ابتسامة حقيقية؟ لا أنوي رسمك بهذا العبوس المكفهّر الثقيل الجاثم على وجهك.

ـ إذن.. من الأفضل أن تبدأ باخباري النكات المضحكة، فهذا هو الشيء الوحيد الذي قد يجعلني أضحك هذا الصباح.

ضحك دانيال دون توقع وأردف قائلاً:

ـ ما أعرفه من النكات، لا يمكن سرده امام الإناث... لكنني قد أعرف عدة طرق أخرى تجلب الابتسامة الى وجهك.

وقفت فيلي على قدميها، وقد أثارت استياءها طريقة حديثه إليها، ثم قالت:

ـ فلنذهب إلى مشغل رسمك إذن. فكلما اسرعنا كان الأمر أفضل،

وننتهي في وقت أسرع.

ـ انت لا تقومين بهذا بدافع الحماسة والقناعة... أليس كذلك؟

تقدم دانيال أمامها الى خارج المكتبة، فردت:

ـ انا لست إحدى سيدات مجتمعك.. ولا أريد أن أجلس لترسم لي لوحة.. كي أقول فقط إن دانيال ثورب رسم صورتي بريشة كفه.

ـ ألا تعجبك لوحاتي؟

ـ لم أشاهدها في الواقع. ولم أكن أعرف من أنت إلى أن أخبرتني امي... إنها معجبة بك.

ـ أما أنت فلا.. كما هو واضح. لا يهم.. كل ما عليك ان تفعلي هو الجلوس ساكنة وأن تظهري جميلة.

ـ بالنسبة إلى الطلب الأول فهو بسيط، أما الثاني فربما يكون مستحيلاً.

ـ لماذا؟

وتحت وطأة دهشتها من سؤاله قالت:

ـ ظننت هذا أمراً واضحاً.. إما ان يكون المرء جميلاً أو لا، وإذا لم يكن جميلاً.. فلا شيء في الدنيا يغير هذا الواقع.

ابتسم دانيال وأجاب:

ـ لا تصدقي هذا.. لقد رسمت نساء أجرين عمليات جراحة تجميلية حتى لم يبق أثر من وجوههن الاصلية موجوداً.

ـ وهل جعلهن هذا جميلات؟

ـ في بعض الحالات حسّن هذا مظاهرهن الخارجية.. لكنه لم يعطهن وجهاً كوجهك.

ـ وما نوع وجهي؟

ـ إنه نوع من الوجوه، تحدق إليه العمر كله دون أن تسأم.

جاء الرد مذهلاً بالنسبة إلى أوفيليا... ولما قرأ ملامح الصدمة والاستغراب على وجهها، رفع حاجبيه قائلاً:

ـ أتظنين أنني أكذب؟ ربما لا تكونين جميلة بالمعنى المفهوم. لكن،

لك لون البشرة الكاملة، مع عينين بنيتين، والشعر الماهوغوني القاتم.. وقسمات وجهك ساحرة وخلابة.. خطوط تثير الاهتمام، صورة انعكاسية رقيقة، لكن فيها القوة الكامنة.. أما فمك.. فيمكنني أن اقضي اسبوعاً كاملاً لاتمام رسمه، وأنا أشعر بالمتعة في كل لحظة.

أحست أوفيليا بالارتباك والاحراج تماماً، فتمتمت بحدة:

ـ أتمنى أن لا يطول الأمر هكذا. لديّ عمل كثير أقوم به.

اكملت عبور بقية الممر بسرعة، لكن دانيال بقي ملازماً لها بسهولة... وسمعت وقع أقدامهما يحدث أصداء رنّانة، فقطبت جبينها قائلة:

ـ هذا المكان يبدو دائماً فارغاً.. وأعتقد أن واقعه أفضل حالاً في الصيف، حيث هناك الكثيرون ممّن يمرون به.

ـ في الصيف لا أعرف الوحدة.. اما في الشتاء فأجده خالياً من الحياة... وبإمكانك اختيار ما تفضلين!

ـ وأنت... ماذا تختار؟

ـ لا هذا ولا ذاك.. إنه ليس منزلي، ولا أريد البقاء هنا.

ـ لكن، بما أن لا خيار لك، فمن الافضل أن تفعل شيئاً.

ـ مثل ماذا؟

ـ حسناً.. الحل الافضل أن تتزوج، وتملأ المكان بقطيع من الاولاد المثيرين للضجيج، وهذا بكل تأكيد سيحل مشكلة هدوء المكان ورتابته.

ـ لا...

رده المقتضب، ولهجته الخطيرة، جعلاها تنظر اليه بحيرة، وتقول:

ـ ماذا تعني... لا؟

ـ ظننتها واضحة جداً.

ـ ليست واضحة بالنسبة إلي.

نظر اليها بغضب:

ـ إذن سأفصّل كل كلمة لك... لا للزواج.. لا للأولاد.. وهذا قرار اتخذته منذ أمد بعيد.. وأمر لن أغيّر رأيي فيه أبداً.. وقناعة لن أتزحزح

عنها.

ـ الكثير يقولون هذا.. وأظن حياة العزوبية تروق لرجل مثلك.. لكن في يوم ما، سيحدث شيء يجعلك تغير رأيك...

ـ كفى... توقفي عن هذا الهراء!

هذه المرة حدته وصلت اليها تماماً... أدركت أنها اصابت منه وتراً حساساً، ولسبب مجهول، جرحه طازجاً.. فصمتت.. مع انها لم تستطع إلا أن تتساءل ما الذي تسبب بردة الفعل الشرسة هذه التي ظهرت من قبله.

كان الاستديو (المرسم) كما تذكره اول مرة رأته، غير أنه في هذا الصباح بدا مليئاً بنور النهار المشعّ والمتدفق من خلال النوافذ الطويلة، وبينما كانت تتجول وضع دانيال كرسياً خشبياً في آخر الغرفة.

ـ اجلسي هنا.. هذا الصباح سأرسم الخطوط الرئيسية، وحين أصل الى الرسم الحقيقي... أريدك ان ترتدي ثياباً فخمة من المخمل ربما.. وتضعي الماكياج المناسب الذي يبرز لون بشرتك ويجعلها مؤثرة اكثر.

جلست فيلي الى الكرسي، ثم رفعت وجهها اليه حين تقدم ليقف قربها.. وضع أحد أصابعه بلطف تحت ذقنها ليرفع وجهها قليلاً، وهو يقول:

ـ أريدك أن تبقيه على هذه الزاوية، واتركي يديك مسبلتين على حجرك.. هكذا.

أطبقت يداه على معصميها، ليحصل على الوضع الذي يريده، فأحست بالتصلب، وتدفقت الأفكار مجدداً الى رأسها وكان من الصعب عليها أن تتخلص من هذه الافكار.. وأحست انه يعرف بهذه المشاعر التي تثيرها لمسته بها... وسألها:

ـ لماذا تتظاهرين بكراهية ملامستك؟ ألأنك تحبين هذا فعلاً؟ بل تحبينه كثيراً!

أمرّ، متعمداً، اصبعه فوق معصمها ثم على راحة يدها، فاهتزت اصابعها للمسته وقالت بحدة:

ـ أتريد أن ترسم.. أم أن تلعب العاباً سخيفة؟

استرخى فمه بابتسامة ساخرة وقال:

ـ ظننت الرد على سؤالك واضحاً.. لكن، أعتقد أن من الأفضل أن نبدأ الرسم قبل ذهاب النور.

أحست بالتوتر، فجلست منصلبة فوق الكرسي، آملة أن لا يستغرق الأمر كثيراً من الوقت.. فهي ليست واثقة من أن أعصابها المنهكة قادرة على تحمل دانيال ثورب، أكثر من أوقات قصيرة!

* * *

٦ ـ تنام على الشوك

جلس دانيال مستقراً على مدى خطوات منها، وبدأ يرسم خطوطاً سريعة وأساسية. . فوجدت فيلي من الصعوبة أن لا تتوتر، وإذا بتلك النظرة السوداء تنصب عليها للحظات، تدرس تقاسيم وجهها، وكأنما العين تثير بلمستها الحميمة شعوراً أقوى من طريقة اللمس باليد ولمحاولة إبعاد التفكير عن رأسها قالت:

ـ ألا يمكنني الكلام وأنت ترسم؟

ـ بوسعك أن تفعلي ذلك شريطة ألاّ تحركي فمك.

لكن المشكلة أنها لم تستطع التفكير بموضوع حديث. على الأقل لم تجد ما هو غير شخصي وآمن، فالوضع كله صعب بما فيه الكفاية، وتريد التحدث بشيء يخفف من حدة توتر الجوّ القاسي قساوة الطقس في الخارج.

ـ البرد قارس في الخارج، أظنها ستثلج؟

ـ لا.

وعلى عكس توقعها، جاءت إجابته مقتضبة، فلتفكر بموضوع آخر، لكن دانيال رفع رأسه وهو يسأل:

ـ كيف أمست وكالتك؟

لم تكن تتوقع السؤال، لذا مرت لحظات قبل أن تستجمع أفكارها وترد عليه:

ـ عشت وعملت في لندن عدة سنوات. لكن. . ظروفي تغيرت. واضطررت إلى ترك وظيفتي، فاقترحت عليّ امي ان أعيش معها فترة تتيح

لي إعادة ترتيب حياتي من جديد. . . وهكذا انتقلت الى العيش في هذه المنطقة منذ وقت قصير، وبدأت أحسّ بالوحدة بعد موت ابي. وبدا لي الحل مناسباً. المشكلة كانت صعوبة ايجاد عمل هنا.

هز دانيال رأسه:

ـ هذا احد الامور التي تعيق نمو المنطقة التي تبقى ريفية.

ـ بدأت أبحث الأمر بعمق. . ووجدت ان هناك عملاً بالفعل. . لكنه لا يشغل إلاّ جزءاً من الوقت المتيسّر لي، فهناك مؤسسات صغيرة، تريد بدائل مؤقتة لموظفيها الذين يذهبون في اجازات. وهناك محلات بيع بحاجة الى فتيات يعملن مؤقتاً للحلول مكان أشخاص يصابون بأمراض فجأة. . . ومثل هذه الامور. ثم اكتشفت ان للأمر امتداداً اكثر من هذا، فهناك كبار في السن يحتاجون إلى من يساعدهم في الحدائق والديكور وأمهات شابات يائسات هن بحاجة إلى من يرعى أولادهن. . أشخاص يعتنون بأقارب عجائز. يحتاجون الى من يحل محلهم ليرتاحوا، وبدت لي لائحة لا تنتهي من الفرص.

ـ فقررت القيام بشيء منها؟

ـ بدت لي فكرة جيدة، فهناك الكثيرون هنا يفضلون اعمالاً جزئية. . أمهات لهن أولاد في المدارس، أشخاص تقاعدوا باكراً ويرغبون في أعمال لا تأخذ اكثر من يومين او ثلاثة اسبوعياً. . . كانت المسألة الكبرى، تنسيق كل هذا وتنظيمه، ومطابقته، حتى بتنا نؤمّن كذلك موظفين لوقت كامل. . وبما أن الوكالة اصبحت معروفة، فهناك المزيد من الشركات المحلية التي تتصل بنا لإعلامنا بوجود فرص عمل شاغرة لديها.

رفع دانيال حاجبيه وقال:

ـ تجعلين الأمر يبدو هنا سهلاً محدد المعالم. . لكن اعتقادي أن الامر لم يكن سهلاً كما تصورين.

ـ لا. . لم يكن سهلاً. . لكنه يسير بسهولة الآن، وهناك فتاة محلية اسمها روزي، تتولى الادارة مكاني حين لا أكون موجودة. إنها كفية

ممتازة.

ـ تبدو لي حياتك مليئة بالعمل.. هل هي حياة وحيدة كذلك؟

ـ ماذا تعني؟

وتساءلت اوفيليا إلى أين يا ترى قد يقود هذا الخط من الأسئلة التي راح يطلقها دانيال، الذي قال:

ـ تحدثت عن الكثير من العمل، لكنك لم تذكري حياتك الخاصة. ألديك حياة خاصة؟

ـ لست أرى أن هذا يعنيك! على أي حال.. بمكنني طرح الأسئلة عينها عليك، فأنت تملك هذا المنزل الضخم.. لكنني لم أرَ أي اصدقاء لك، والمناسبات الاجتماعية معدومة عدا ما يدفع الناس من جيوبهم لأجل إحيائها.. أم أنك لا تدعو احداً لزيارتك إلا من يدفع لقاء هذا الامتياز؟

قطب دانيال جبينه، كما لو كان يرسل تحذيراً لها، وقال:

ـ ربما أنا لا أتناسب مع الوضع الاجتماعي هنا.

ـ لا أصدق هذا. أنت من آل «ثورب».. أليس كذلك؟ وبامكانك إثبات أصلك ولأجيال بعيدة، ولديك صورهم مرسومة ومعلقة على الجدران.. ليس هذا فقط، بل أنك المالك الوحيد لاحد افضل القصور في المنطقة. ورسام شهير.. ولا بد أن كل هذا يجعلك أشهر رجل في هذا الجزء من البلاد... ومن حقك أن تكون على قمة لائحة المدعوين من جانب أي شخص هنا.

ـ إذا تجاهلت الدعوات لوقت يكفي، تتوقف في النهاية.

ـ ألا تهتم بالاختلاط الاجتماعي؟

ـ مع أناس ليس بيني وبينهم أي شيء مشترك؟.. لا!

نظرت اوفيليا اليه مفكرة وقالت:

ـ لا بد من أنك تشكل خيبة أمل لكل الأمهات اللواتي لهن بنات في سن الزواج.. ولا بد أنهن يتشوقن لمناسبة يظهرن لك فيها بناتهن، وأنت لا تهتم... ولا تعطيهن الفرصة.

نظر اليها ساخراً وهو يقول:

ـ لم أقل انني لا أهتم.. قلت فقط إن ليس لي نية في الزواج. وأظن أنني أوضحت لك اهتمامي بالجنس الآخر.

ثمة شيء ما في لهجته المخملية ذكرها بوضوح بما جرى بينهما ليلة امس، وهدد الاحمرار بالتصاعد الى وجهها. فسارعت تقاومه، ثم حاولت بارتباك اخفاء قلقها وهي تقول:

ـ على اي حال، أعتقد أن عليك التفكير بالزواج يوماً.. أعرف أنك لا تريد اللقب.. لكنك مضطر في النهاية إلى إنجاب وريث يرثه ويرث كل هذا الإرث النفيس من الأملاك والأمجاد.

وفي لحظة ما، طار قلم الرصاص من يد دانيال عبر الغرفة ليضرب الحائط المقابل ويصدر صوتاً حاداً جعلها تجفل خوفاً، وارتمت حمالة الرسم مع الاوراق فوق الأرض. واصبح وجهه عاصفاً مهدداً، وهو يصرخ بحزم:

ـ هل هناك مزيد من الاسئلة الشخصية تودين طرحها بعد؟

ـ أنا آسفة... لم أقصد...

ـ بلى.. كنت تقصدين! لكن بما أنك مهتمة جداً بحياتي الخاصة، فلأوضح لك أمراً، وللمرة الأخيرة.. إنني لا أنوي الزواج.. ولا أنوي إنجاب أولاد.. بسبب الوعد الذي قطعته لأبي بأن ارتبط بهذا المنزل اللعين طوال ما تبقى من حياتي... لكن حين أموت لن يعود هناك احد من عائلة «ثورب» يعيش هنا. هكذا.. إذا كنت ترين أي أمل في اصطياد زوج له لقب لنفسك.. انسي الأمر! قد أكون رغبت فيك ليل أمس.. وربما ما زلت أريدك.. لكن.. هذا هو الحد.. وليس أكثر.. هل كلامي واضح؟

مصدومة تماماً، حدقت فيلي إليه، ووجهها ممتقع اللون من الشحوب، ثم وقفت على قدميها، ونظرت اليه بازدراء جليّ، وقالت ببرودة أعصاب:

ـ واضح تماماً! لكن هذه الخطبة الصغيرة لم تكن ضرورية.. فأنا لا أبحث عن زوج، بل إنني مثلك، لست مهتمة بالزواج، ولو كان الأمر

يهمني، فلن أفكر برجل قطّ سيّء الطباع مثلك... لورد كادوغان!

ما إن أنهت كلامها، حتى استدارت لتخرج من مشغل الرسم، بقدر ما استطاعت أن تجمع من وقار وكبرياء.

مرت عشر دقائق، وهي لا تزال ترتجف بعصبية... ذلك الصدام الغاضب بينهما أزعجها أكثر مما اعترفت لنفسها، واكثر ما زاد من نقمتها انها لم تعرف للصدام سبباً.. صحيح أنها طرحت الكثير من الاسئلة، فإن كانت لم تعجبه، فلماذا لم يطلب منها التوقف؟ ولا مسوّغ لأن ينفجر في وجهها هكذا!

كانت تجلس وهي تفكر في غرفتها... وقفت الآن وتقدمت من الخزانة لتخرج ثيابها. مستحيل أن يبقيها في قصره بعد هذا الصدام البشع بينهما، ومن الأفضل لها أن توضب حقيبتها في أسرع وقت ممكن.. وما إن أنهت تكويم الثياب على السرير حتى قرع الباب، ثم دون انتظار الرد فتحه دانيال ودخل.. فعاجلته بسؤال حاسم:

ـ أجئت تتأكد من رحيلي؟ لا تقلق، أوضب ثيابي في اسرع وقت ممكن.

ركز نظرته السوداء عليها، وهو يقول:

ـ لم أكن أعتقد أنك ستهربين لمجرد أنني صحت في وجهك. ظننتك أكثر صموداً وصبراً من هذا!

ـ لست.. أنا لست خائفة منك. وأستطيع تحمل طبعك السيّء... لكن ما قلته لم يعجبني.

ـ أتتركينني لأنني اتهمتك بأنك صائدة ثروات؟... أنا دائماً أقول أشياء لا أعنيها، وظننتك ذكية بما يكفي لتعرفي هذا.

ـ أنا لست حمقاء.. ولست قارئة أفكار كذلك.

ـ لكن، أظن أنك قد بدأت تفهمينني قليلاً.

صمت قليلاً، ثم مد اليها يده بشيء.. لفافة مسطحة حوالي القدم المربع.

ـ ما هذا؟

ـ لوحة.. أريدك أن تأخذيها.

ـ لا أريد.

ـ ولماذا؟

ـ لأن لوحاتك مرتفعة الثمن.. ولا أستطيع قبول شيء مثلها... سيكون الأمر مثل.. حسناً.. مثل أخذ رشوة.

رد دانيال متحدياً بسخرية:

ـ ماذا تظنين بالضبط أنني ارشيك لتفعلي؟

اخذت أوفيليا تتململ قائلة:

ـ لست أدري.. أنا فقط.. لا اشعر بالارتياح لها.

ـ في الواقع.. اللوحة ليست لك، إنها لوالدتك.. لقد قلت لي إنها معجبة بي.. أليس كذلك؟

ـ اجل.. إن من أغلى الأماني عندها أن تحصل على لوحة لك... ولكن..

قال بشيء من المرح:

ـ اظن أن من واجبك أن تأخذيها.. إنها طريقة اعتذار.. وهي الشيء الوحيد الذي ستحصلين عليه.. أنت محقة، لدي مزاج رديء، ويخرج عن سيطرة يدي أحياناً. لكن سورته لا تدوم طويلاً، ودائماً أندم فيما بعد.. وأحياناً.. مثل اليوم.. أحاول التعويض والتكفير عما بدر مني.

ما الذي تستطيع اوفيليا فعله سوى قبول الهدية؟ ثم إن والدتها ستكون سعيدة جداً باللوحة، وهي تعلم جيداً أنها مدينة لأمها، واعطاؤها لوحة لدانيال ثورب ستكون خطوة صغيرة لرد الجميل... وتمتمت:

ـ شكراً لك.. أيمكنني النظر اليها؟

ـ إذا أحببت.

انتزعت الورق عنها.. وعلى الفور كادت تشهق إعجاباً: اللوحة الصغيرة كانت مزيجاً مذهلاً من الألوان والضوء البرّاق.. منظر بسيط، جبال وأشجار، وسهول من الأزهار البرّية. وبلدة فوق رابية بعيدة، فيها منازل ذات قباب حمراء منحنية، وجدران كهرمانية اللون.. حتى كادت

فيلي تحس بدفء الشمس المشعة من سماء زرقاء صافية، وأن تشارك سكان تلك القرية رخاء حياتهم السهلة.

وبعد لحظة ذهول وتفكر قالت أوفيليا:

- أين تقع القرية الحقيقية التي تجسّدها هذه اللوحة؟

- انها في جنوب إيطاليا، إنه منظر من نافذة غرفة منزلي هناك.

- منزلك؟

- قلت لك إن هذا المكان ليس منزلي.. لقد كنت أقتنص الفرص لأذهب إلى هناك.. إنه منزل قديم وهادىء ويقبع في مزرعة نائية... هو بعيد بما يكفي عن الطرقات الرئيسية، ولا يجد السواح طريقهم الى هناك، لكنه لا يبعد أكثر من ساعة في السيارة عن فينيسيا.

- يبدو لي هذا رائعاً.

ركز دانيال نظره عليها بفضول بارد.. وكان من الصعب على أوفيليا أن تعرف إن كان ما يقوله هو من باب المزاح أو الحقيقة، غير أنه تابع قائلاً:

- تعالي لتشاهديه يوماً.

ابتسمت فيلي، وقالت بارتجال سريع:

- ربما سأفعل.

وقررت أنها مجرد دعوة مرتجلة لم يفكر فيها أو يعنيها، لكنه سأل:

- هل سامحتني؟ وهل ستعيدين ملابسك إلى الخزانة الآن؟

- أجل.. أعرف.. لكنني لم أتوقع..

- لم تتوقعي ماذا؟

احمرّ وجهها قليلاً..

- لا يهم..

التقطت ملابسها لتعيدها الى الخزانة.. وتقدم دانيال الى الباب حيث توقف وقال:

- على فكرة.. كنت أتحدث مع نيڤن بلاكمور هذا الصباح، وقال لي إنه أصلح سيارتك، ولن تحصل لك متاعب معها بعد الآن.

ارتفع رأسها فوراً:

- في هذه الحال.. أيمكنني.. أن آخذ فرصة إلى ما بعد الظهر؟

هز كتفيه بالإيجاب قائلاً:

- لست أرى ما يمنع من ذلك.. لقد عملت بمشقة هذا الأسبوع، ويحق لك بعض الوقت للراحة، أتنوين الذهاب إلى مكان محدد؟

- سأذهب الى منزلي.. أريد اعطاء اللوحة لأمي.

- هل أذهب معك.. عندها أستطيع تقديمها لها بنفسي.

عرضه صدمها، فقالت بسرعة:

- لا.. لا يمكنك فعل هذا!

ثم أدركت أنه ينظر اليها بحدة وتساؤل، فأكملت بسرعة:

- أعني... قد لا أذهب مباشرة الى هناك.. لم أقرر نهائياً بعد.

ومع أن ملامح الارتياب بدت على عينيه، فما همها من ذلك... إن ما تفعله في وقتها الخاص ليس من شأنه! وليس له الحق في التدخل في حياتها الخاصة.

بدا عليه أنه تلقى الرسالة وفهم مضمونها، فتخلى عن متابعة الموضوع... وبدأت تحدثه عن أمر آخر وهي تعيد ثيابها الى الخزانة:

- قلت إنك رأيت نيڤن بلاكمور باكراً. هل سألته عن ذلك الشاب الذي غنى في الاحتفال؟

قطب جبينه ورد باختصار:

- لا.. ولماذا أسأل؟

- آه.. ظننتك تهتم به.

- أنت من كنت مهتمة به.. لقد كان مغنياً ناجحاً، وهذا كل ما في الأمر بالنسبة إلي، ولست ادري إذا كنا سنراه بعد الآن.

- بل كان أكثر من ناجح.. لقد أسر المستمعين إليه وبهرهم.. ألا تعرف اسمه؟

نظر اليها بحدة:

- لماذا هذا التوق المفاجيء إلى معرفة المزيد عنه؟

ـ كان فيه شيء ما.. كان.. آه لست ادري.. مألوفاً جداً.. بطريقة ما..

بدا عدم الارتياح على وجه دانيال، وقال:

ـ ليس لدي فكرة عمن هو، ولا أريد أن أعرف... انسي أمره اوفيليا.

ـ لكن...

استدار لينظر اليها، فصمتت على الفور.. لقد شاهدت هذه النظرة على وجهه من قبل.. وتعرف أن كلمة أخرى في الموضوع ستجعله يفقد أعصابه.

لماذا هو حساس هكذا؟ ومن هو ذلك الشاب الأسود الشعر والداكن العينين الذي رمقه بنظرة شرسة قبل أن يخرج من القاعة الكبرى ليلة امس؟

ثم صدمها تفسير واحد بقوة جعلها تقاوم بحدة لتمنع نفسها من الشهيق... ذلك الشبه الشديد.. نفس التعبير المتعجرف على تلك القسمات القاسية المحددة... انها صادرة عن نوع محدد من رابطة الدم... لكن هل هذا ممكن؟ إنها تظن أن دانيال هو في بداية الثلاثين من عمره، لكن يمكن أن يكون أكبر سناً. وربما ذلك الشاب يبدو أكثر نضوجاً من حقيقة سنة... وقامت بحسابات سريعة.. أجل... الفكرة تقترب من ان تكون ممكنة.. وتفسّر بكل تأكيد أشياء كثيرة.. ولا عجب من أن يكون دانيال ثورب حساساً إلى هذه الدرجة حول موضوع وريث، اذا كان له بالفعل ابن غير شرعي، وبهذا السن!

حين عاد تفكيرها الى صفائه وجدت أن دانيال قد ترك الغرفة. وتذكرت أن لديها بضع ساعات ثمينة، فأمسكت معطفها، واللوحة، وحقيبتها، ثم ركضت تهبط السلم. وكل تفكير بدانيال ثورب وبمشاكله اصبح خارج رأسها واهتمامها الآن.

كان البرد قارساً في الخارج.. لكن سيارتها عملت من المحاولة الأولى، ودار المحرك بسهولة ونعومة. الطريق كانت مهجورة تقريباً، لذلك كانت توقف سيارتها خارج باب منزل أمها في وقت قصير جداً...

فتحت أمها الباب لتبتسم لها فيلي بسعادة وتبادرها بالقول:

ـ لقد أطلق سراحي من السجن لبضع ساعات! أين هما؟

ـ إنهما يعبثان بالغرفة الامامية... فاحذري أن يصيبك حجر طائر وأنت تدخلين اليهما.

لكن فيلي لم تسمع بقية كلام أمها، بل راحت تركض باتجاه الغرفة ووجهها يسترخي في ابتسامة عريضة، تعبّر عن سعادتها الكبيرة وهي تدخل الباب.

على الأرض، كان التوأمان يلعبان بسعادة، وأمامهما أكوام من أحجار البناء البلاستيكية المتعددة الألوان، تيم وتوني اللذان سمتهما باسماء مستعارة، تويلدوم وتويلدي. بعد الحضن والتقبيل، جلست معهما على الارض تراقبهما وهما يلعبان.. إنها لا تتعب أو تملّ أبداً من النظر اليهما، ومن التفكير بسعادة أنهما لها وحدها. وأنهما اغلى ما في الوجود.. ولا شك إطلاقاً أنها أمهما. لهما لون أوفيليا نفسه، نفس العينين البنيتين الكبيرتين، المحاطتين برموش طويلة سوداء، وذات الشعر الماهوغوني «الاحمر البني» الكثيف. كم هما طفلان جميلان، قويان، صحيحا الجسم، ويوماً ما سيكونان رجلين وسيمين.

قال لها توني آمراً:

ـ مامي... العبي!

ابتسمت وضربته على قفاه مما جعله يغرق في الضحك..

ـ من انت حتى تأمرني هكذا ايها الشاب؟

لحظات وكانت تتقلب على الارض معهما، وتستخدم معهما «مواد البناء» لتبني مرآباً لسيارة سباق صغيرة، كان تيم يدفعها حول الغرفة وهو يصيح باعلى صوته «فرووم... فرووم!».

في هذه الايام، من الصعب على فيلي ان تتذكر مدى رعبها ويأسها حين اكتشفت أنها حامل.. تلك الأشهر التي حملتهما فيها، كانت كابوساً، كرهت كل لحظة منها، وكرهت كيف تحول جسدها الى بالون منتفخ، يضج بآلام لا حصر لها. الولادة نفسها كانت طويلة وصعبة، حين

انتهت، كانت واثقة انها ستكره الولدين دوماً من جرّاء البؤس والآلام التي سببها الطفلان لها. ثم شاهدتهما لأول مرة... شيء غامض، وعجائبي تماماً، حصل لها.. شيء لم تتوقعه ابداً... موجة حب شرسة عنيفة اجتاحتها، وجعلت عينيها تغرورقان بالدموع وتركتها ترتجف. ومنذ تلك اللحظة، اصبحا مرتكز حياتها... تعرف أنها ستعمل إلى أن تقع ميتة كي توفر لهما حياة سعيدة، وأنها تخاطر حتى الموت لو لزم الامر لحمايتهما.. ببساطة، كانت تحبهما إلى درجة العبادة.

من الصعب التصديق الآن أنهما اصبحا في سنتهما الثانية.. غالباً ما كانت تكره الأوقات التي تضطر فيها إلى الابتعاد عنهما، لتكسب عيشها، فهذا يعني، انها ستشتاق إلى لحظات كثيرة صغيرة لكن هامة جداً من حياتهما. من ناحية أخرى تعرف انها محظوظة جداً في كثير من الطرق.. حالياً ليس لديها الكثير من المشاكل، خصوصاً بعد نجاح الوكالة، ولا تعاني من مشاكل ايجاد من يعتني بهما وهي تعمل. فأمها دائماً اكثر من راغبة في رعاية الطفلين، ولأن التوأمين يحبان جدتهما كثيراً، فالترتيب هذا يسير بشكل رائع، ويساعدها على التخفيف من عقدة الذنب للساعات التي تضطر احياناً إلى تركهما فيها بفعل دواعي العمل.

بعد انتهاء اللعب اخذتهما فيلي الى الحمام، وكالعادة انتهى بها الأمر إلى ان تكون مبللة أكثر منهما.. وكانا يصيحان بحدة فرحاً وبهجة وهما يرشانها بحفنات من الماء والصابون، وكانت الأم تصيح بسعادة:

ـ أيها المتوحشان.. أنتما مدللان مفسودان لا أمل منكما.

فتوسل اليها تيم:

ـ كوني وحش رغوة صابون.

اكمل توني الرجاء قافزاً في الهواء:

ـ نعم... نعم...!

صبت فيلي المزيد من سائل الصابون في الماء وحركته إلى أن تصاعدت الرغوة ثم وضعت حفنة منها على رأسها.. ثم اخرى.. حين ارتفعت الرغوة عالياً، وضعت المزيد على وجهها وعلى قمة أنفها،

وأخذت تعبس في وجهيهما.

كانت هذه إحدى لعبهما المفضلة معها.. وسيكونان أكثر سعادة لو استمر هذا طوال الليل، ونسيت فيلي الوقت... اخيراً أخرجتهما من الحمام، متغلبة على نوازع الحنان عندها أمام احتجاجاتهما التي اعتادت عليها.. جففتهما، وألبستهما ثياب النوم، ثم وضعتهما في الفراش.

وكالعادة، ألحّ الطفلان على سماع قصة منها، لكنها لم تكد تمضي بضع دقائق في القراءة حتى كانا معاً يغطان في نوم عميق... إنهما دائماً يفعلان الشيء نفسه معاً، يستيقظان في اللحظة عينها ويطلبان الطعام معاً.. واعتادت فيلي على أن تواجه وجهين سعيدين، أو وجهين مليئين بالدموع، وهذا ما كان يذهلها. ولأنها اصلاً طفلة وحيدة لأبويها، كانت تحسدهما وتحضهما على الالتصاق ببعضهما بعضاً. وطوال ما تبقى من حياتهما، سيكون لديهما من يلجآن اليه.. شخص يستطيعان الاعتماد عليه، وتعلم ان هذا سيكون امراً ضرورياً لهما، اذ لا أب لهما.. لقد مات، في حادث سيارة منذ سنة بعد انفصاله عنها قبل أن تعرف أنها حامل... لكن حتى ولو كان حياً.. فلا فارق. فمنذ البداية، لم يرغب الأب في ان يحمل مسؤوليتهما، ورفض الاعتراف بوجودهما.

ولطالما احست فيلي بالقلق ممّا ستقوله للولدين حين يكبرا بما فيه الكفاية ليطرحا عليها الأسئلة المربكة، فبعيداً عن كل هذا، لم تكن تفكر مطلقاً بالرجل الذي تركها، وترك لها مسؤولية ستبقى على عاتقها طوال حياتها. لكن الألم، الجرح، الاستفاقة من الوهم، كلها أمور اصبحت وراءها الآن. مع أنها يوماً، ندمت بمرارة على كل ما حدث... لكنها الآن تعرف أنها لن تتمكن من تغيير أي شيء من هذا الواقع، حتى ولو أعطيت الفرصة لفعل ذلك.

بعد نوم الطفلين، بقيت في غرفة نومهما فترة طويلة، تحدق إلى الوجهين الحبيبين الصغيرين، ووجنتاهما لا تزالا حمراوين من دفء الحمام... إنهما كالملائكة.. ثم عبست.. فحين يستفيقان ستكون كلمة ملاكين هي آخر ما يفكر فيها كل شخص يراقبهما ويطلب منه أن

يصفهما! فكلاهما مليء بالازعاج والشرور الطفولية، مع أن لهما طبيعة محبة ومحبوبة، خصوصاً بالنسبة إليها.

اخيراً تسللت أوفيليا مكرهة من الغرفة، تاركة مصباحاً خفيف الاضاءة. في الأسفل وجدت أمها تجلس مسندة قدميها الى سنادة أقدام صغيرة، تتمتع بساعة ارتياح وهدوء.

سألتها فيلي، وهي تشعر بالذنب:

ـ هل انت متعبة، يا أماه؟

ـ اجل.. وأحب التعب هذا. أتذكرين كم كنت أعاني من الأرق؟ لم أعد أعاني منه أبداً! بعد قضاء نهار مع هذين الشيطانين أنام دون وعي.

ـ أواثقة أنت بأن هذا ليس بالكثير عليك؟

ـ إذا كان هذا، سأخبرك.. أحب جداً أن أكون جدة.. وجدة مفيدة كذلك! بعد وفاة أبيك، ولفترة طويلة أحسست بأن حياتي قد توقفت.. لم يكن لديّ شيء أفعله لأملأ الساعات الطويلة الفارغة في اليوم... انتقلت من المنزل، حاولت الاهتمام باعادة ديكور هذا المنزل وإعادة تجديد أثاثه. لكن هذا كله لم ينجح.. ثم اتصلت بي يوماً لتقولي إنك حامل، وإن الأب يرفض الاعتراف بحملك بعد أن هجرك. فأدركت ساعتها أن هذا ما انا بحاجة اليه.. وسار كل شيء على ما يرام.. وأفضل بكثير مما كنت اتوقع.

وبغية تطييب خاطر الأم، قالت أوفيليا:

ـ ما كنت سأتمكن من الاستمرار في العمل لولاك.. ولما كنت استطعت النجاح في الوكالة.

ـ انا سعيدة لنجاحها.. ومن الأجدى لك متابعة العمل، والخروج للتعامل مع الناس.. فليس صحياً لك وللولدين أن تبقي طوال حياتك إلى جانبهما.

ـ لكنني اشعر بالذنب حين أتركهما لوقت طويل.

ـ طبعاً.. هذا أمر طبيعي. لكنك عاقلة، وتعرفين انك لا تسببين الضرر لهما.. ومن الصعب أن تجدي ولدين بهذه السعادة والتوازن

الصحي.

ـ الكثير من هذا مدين بفضله لك.. وهذا ما يذكرني.. جئت لك بهدية.. صغيرة.. وأظنها ستعجبك كثيراً.

أعطتها اللفافة، ثم أخذت تراقبها وهي تفتح الغلاف.. وتكشف عن اللوحة الصغيرة في الداخل.

وللحظات شحب لون أمها... ولم تقل شيئاً على الاطلاق.. ثم استعادت وعيها قليلاً:

ـ فيلي!.. هل هذه ما أظنها؟

ـ إنها لوحة حقيقية لمنظر طبيعي لدانيال ثورب... أعجبتك أليس كذلك؟

ـ لكن.. كيف حصلت عليها؟ ولماذا تعطينها لي؟ هل لديك فكرة عن قيمتها؟

ـ ليس لدي فكرة اطلاقاً، ما عدا أنها تساوي الكثير. أما كيف حصلت عليها، فلقد فقد أعصابه هذا الصباح في وجهي.. وأعطاني اللوحة كي يعتذر.. كانت لك اصلاً.. على فكرة.. كنت قد قلت له إنك معجبة به وبعمله.

ـ إنها رائعة.. هذا الرجل عبقري.. وكم أحب ان ألقاه وأجالسه وأتحدث إليه. كيف هو شكله فيلي؟ مع أنني أحب عمله، إلا أنني لا أعرف شيئاً آخر عنه.

ـ إنه... إنه.. معقد.. سيّء الطباع، مزاجيّ أحياناً.. لكنه ليس حقوداً. لا أظنه أمضى طفولة سعيدة... وأظنه أحس بالوحدة كثيراً، وكبر ليصبح ناضجاً منعزلاً. وهو الآن ملتزم بالقصر الذي يكرهه... يدور في ذلك القصر لوحده ولا يبدو لي هذا عدلاً.. إنه بحاجة...

صمتت، بعد أن أحست أن امها تنظر اليها باستغراب.. وسألتها الام بهدوء:

ـ إلامَ تظنين أنه يحتاج... فيلي؟

هزت فيلي رأسها، وتابعت كلامها:

ـ لست أدري حقاً.. ليس بوسعي الكلام على شيء لا أعرف عنه شيئاً.

نظرت الى ساعتها وتأوهت قائلة:

ـ الوقت متأخر هكذا! الافضل أن أسرع. سألقي نظرة على التوأمين اولاً.

أمضت خمس دقائق وهي تقف قرب سريريهما، تراقب نومهما.. ثم طبعت قبلة سريعة وحارة على جبين كل منهما، وأخذت معطفها ونزلت على مضض، لتأخذ حقيبتها ومفاتيح سيارتها. وبعد توديع أمها، دخلت السيارة وأدارت المحرك.

العديد من الطرقات الريفية لم يكن مضاءً.. الأمر الذي اجبرها على القيادة ببطء، وكان الوقت قد شارف منتصف الليل قبل أن تصل الى كادوغان هال. ولاح لها رسم القصر الاسود شامخاً تجاه السماء وهي تمرّ في آخر منعطف من طريقه الخاصة... وقطبت جبينها بقلق بعد أن شاهدت النوافذ مظلمة.. ماذا سيحدث لو لم يكن هناك احد صاحياً ليفتح لها الباب؟

كانت على وشك الاستدارة إلى الوراء لتحاول فتح أحد الابواب الجانبية حين شاهدت الباب الكبير ينفتح، وانتشر النور الى الخارج من الردهة الداخلية، لينعكس على جسد طويل للرجل الذي كان يقف هناك، وهو ينتظرها بصمت.

أوقفت أوفيليا السيارة، وأقفلتها، ثم تقدمت ببطء الى المنزل. كانت تعلم ان من السخف الإحساس هكذا حول مكان لم تمضِ فيه سوى ايام معدودة. لكنها لم تستطع الخلاص من الاحساس بانها تعود الى منزلها. والاكثر إقلاقاً للبال من هذا، أنها وجدت ذكرى استقبال منزل امها الدافيء لها، قد أخذت تتلاشى.. كيف يمكنها ان تنسى التوأمين؟ الرد، انها لن تستطيع.. بالطبع لن تستطيع.. ومع ذلك فقد بدأت حياتها تنقسم الى نصفين متباعدين، كل نصف منهما غير متصل بالاخر، وبشكل مخيف.. حين وصلت إلى المدخل وسارت بحدة الى القصر، لم يكن هناك مجال

لإنكار أن الحاضر أصبح فجأة أكثر حيوية من الماضي الفوري، فمجرد رؤية دانيال ثورب... ووجهه الصارم، وهو يقف ينتظرها، كان له القوة لحجب كل شيء آخر عن تفكيرها.

أقفل دانيال الباب خلفها، ثم وقف، بحيث اضطرت الى الاستدارة والنظر اليه... وقالت معتذرة:

ـ آسفة لتأخري إلى هذا الوقت... أكنت تنتظرني؟ أعتقد أنك لم تستطع ان تقفل الأبواب قبل حضوري.

ـ بدأت أظن أنك لن تقودي تعودي.

نظرت اليه بدهشة:

ـ ولماذا لا أعود؟ ثم ليس لدي خيار آخر.. لقد وقعت معك عقداً.. كما تستمر في تذكيري!

النور في الردهة لم يكن ساطعاً، مما جعل عينيه تبدوان أكثر سواداً، وهو يسأل:

ـ هل هذا هو السبب الوحيد لعودتك؟

أجفلت فيلي من كلامه، يبدو أنه في مزاج سيّء الليلة، وبدأت تحس بالتوتر... لكنها ردت بهدوء:

ـ انا لا اتخلى عن عمل وهو في منتصفه.. على الاقل، ليس من سبب وجيه ومقنع للإقدام على ذلك.

ـ همم... إذن لنأمل أن لا تعتبري هذا سبباً قوياً..

قبل أن يكون لديها الوقت للتحرك او التفكير بما ينوي فعله، كان قد قطع المسافة بينهما وأمسكها بقوة. فتحت فمها لتحتج، لكنه أسكتها بضمة قوية، تسللت يداه إلى كتفيها وعنقها بحرارة قبل ان تتكلم.

في البداية صدمت فيلي لهذا الهجوم، ثم بدأ رأسها يدور قليلاً بعد أن أثار عناقه ردة فعل غير متوقعة... ثم انسحب قليلاً، وكأنه اكتفى بالنتائج الاولى لهجمته، كمقدمة لما هو اكثر بهجة وسعادة...

فترنحت قليلاً، محاولة ان تشق طريقها الى الواقع.. وكان هذا أمراً مستحيلاً وصعباً.

تمتمت أوفيليا بصوت مرتجف:

ـ لمَ فعلت هذا؟

ـ ألم يعجبك؟

ـ لا.. جعلتني احس..

ـ فاقدة للتوازن؟ معرضة للخطر؟ لكن هذا بالضبط ما أريدك أن تحسي به.

أدارها بلطف، ودفعها نحو السلم قائلاً:

ـ بإمكانك الصعود الآن اوفيليا... وأتمنى أن تجدي صعوبة في النوم مثلي تماماً!

وكأنها المتوّمة، أطاعته.. مع انها استطاعت اخيراً أن تنام، فقد حلمت أحلاماً غريبة.. وأحست بالحرارة والقلق.. حتى أنها مرة، تلفظت باسمه بصوت مرتفع.

* * *

liilas.com
rayqh

٧ ـ لمسات تعيد الماضي

استيقظت فيلي في الصباح التالي آملة أن يكون كل شيء قد عاد الى طبيعته، لكن هذا لم يحدث... بعض الأحاسيس التي تسارعت داخلها ليل أمس، يبدو أنها ما زالت موجودة، وعلى الرغم من محاولة تجاهلها، فإنها لم تستطع التخلص منها... فقد كانت تحس باضطراب، من جرّاء إحساسها بأن حياتها تنقسم إلى نصفين: نصف ملك لمنزل امها التي تعتني بتوأميها، بينما النصف الآخر يعترف بهذا المكان كمنزل لها.. كادوغان هال.. المنزل الذي لا يمت إليها بصلة، حيث ستبقى فقط بضعة أسابيع.. وهذا غير معقول.

استحمت بماء فاتر، ولمدة طويلة، آملة أن ينزاح هذا الكابوس من رأسها.. وحين اتجهت اخيراً إلى الاسفل نحو المكتبة، كانت تحس بالسيطرة أكثر على الأمور. عملت بجهد حتى نهاية الصباح، ثم تناولت الطعام الذي جاءها به ماكومبر على صينيته المعهودة.

أمضت أوفيليا فترة ما بعد الظهر وهي ترتب دفاتر الحسابات وتسجّل فيها آخر المستجدات لتكون بشكل يومي. ثم جلست تنظر الى كومة فواتير تنتظرها. على الرغم من أن تأجير قاعات القصر للحفلات الخاصة والمآدب كان يأتي بدخل ثابت، لكنه لم يكن يساهم في تغطية العجز كثيراً. ولا عجب أن يكون دانيال مصمماً هكذا على المضي في مشروعه لإقامة ملاعب الغولف، والمركز الصحي الرياضي.. بكل تأكيد إنه يحتاج الى شيء حاسم لإخراج الاملاك من الخط الاحمر.

استرسلت اوفيليا بعمق في افكارها، تفكر بالمشاكل المالية التي

يواجهها دانيال ثورب، لم تسمعه يدخل الغرفة بهدوء، ولم تنتبه الى وجوده إلا بعد دخول الكلبين خلفه، ومخالبهما تطقطق فوق الخشب اللماع.. فرفعت نظرها.

لحظة شاهدته، أحست بالاحمرار يغزو وجهها.. اللعنة! لن أتركه يؤثر فيّ هكذا. لست أدري ما الذي يفعله بي.. لكن، يجب أن يتوقف!

قال لها بقليل من المرح:

ـ تظهرين حمراء مشرقة، وتظهرين كذلك كأنك تودين قذفي بشيء ما.. هل فعلت شيئاً أزعجك؟

فتمتمت أوفيليا ساخطة:

ـ تعرف تماماً ماذا فعلت.

جلس دانيال بارتياح الى كرسي، وتقدم أحد الكلبين يريح رأسه بإلفة فوق ركبته، فحولت أوفيليا نظرها الى الكلب.. لماذا لا يراه هذا الحيوان الاحمق على حقيقته؟ لو أن لديه ذرة عقل في رأسه الاجوف، لكان الآن يعض قدم صاحبه!

ـ هل هذا المزاج السيّء هو بسبب ليلة أمس؟ ذلك العناق البسيط؟

ارتفع حاجباها.. ما تذكره أن الأمر كان اكثر من «عناق بسيط» وبدأت بشرتها تحترق وهي تفكر، فسارعت إلى دفع الذكريات المزعجة بعيداً عن تفكيرها. تريد أن تكون باردة وتسيطر على أعصابها بعد ظهر اليوم. ولن تتمكن من هذا إلا إذا نسيت كل شيء عن لمساته القاسية، والحلوة على رغم كل ما جرى. قالت بارتياح لثبات صوتها:

ـ لقد جئت بي إلى هنا للعمل.. وأي شيء آخر ليس ضمن العقد.

ـ أتظنين أن علينا الالتزام أكثر باتفاقنا المبرم؟

ردت بحزم:

ـ أجل.

ـ يبدو لي هذا أمراً منطقياً.

نظرت اليه بريبة.. كان لها احساس غير مريح بأنه يتلاعب بها، وانه في داخله يضحك على ارتباكها، ويتمتع بالقلق الذي يجتاحها كلما كان

بقربها. وقالت له:

ـ إذا لم تتحسن الأمور بيننا.. فقد أضطر إلى.. إنهاء العقد.

ـ وتتحملين النتائج؟

ـ أجل... لست أدري لماذا أنت مصمم على استبقائي هنا.

استقرت عيناه عليها بثبات مقصود، مما دفعها الى الارتجاف.

ـ ألا تعرفين فيلي؟

ردت له نظرته متوترة.

ـ ما الذي تريده مني؟

ـ كل شيء أستطيع الحصول عليه.. هناك أشياء كثيرة في هذه الحياة لا أستطيع الحصول عليها.. حين أجد شيئاً أستطيع الحصول عليه، شيئاً أريده كثيراً، استمر في الجري خلفه إلى أن أمتلكه.

كلامه الهادىء هزها حتى أخمص قدميها، فقالت بحرارة:

ـ هذا تصرف خسيس! إنه يعني أنك دائماً تضع ما تريده في المقدمة، وانك لا تهتم ابداً بحاجات الآخرين ومشاعرهم.

ـ لكنني لا أؤمن باجبار أحد على فعل شيء ضد ارادته. جعلتك توقعين العقد القانوني، والذي يفرض عليك عقوبات محددة لو تركتني قبل انتهاء عملك.. ولا اظن ان في هذا شيئاً غير عادل.. أما بالنسبة إلى الأشياء الاخرى التي تحدث بيننا.. فالعقد لا يغطيها فيلي.. وليس هناك وثيقة رسمية في العالم تجبرك على لمسي، أو عناقي.. كنت حرّة دائماً في أن تهربي.. لو أردت هذا.

كلماته، تأرجحت ثقيلة في الهواء، وكرهت مضامينها بصمت. جعل الأمر يبدو وكأنها هي التي تلاحقه.. والأمر لم يكن هكذا اطلاقاً!

ـ تلك الليلة.. بعد.. المأدبة.. لحقت بي الى غرفتي، والى سريري.. لكن بكل تأكيد لم يكن هذا بدعوة مني.

ـ لكنك تجاوبت.. وحين أردتني ان اتوقف، فعلت.. ولو ان هذا كان آخر شيء في الدنيا اود ان افعله.. اذن، لا تتهميني اطلاقاً بإجبارك على أن تفعلي شيئاً ضد إرادتك فيلي.. قد اكون لجأت إلى وسائل اقناع

لطيفة لكنني لم أتمادى أكثر.

قشعريرة داخلية سريعة هزتها مجدداً، وهي تتذكر أشكال تلك «الوسائل الاقناعية اللطيفة»، ثم جذبت نفسها متماسكة بقسوة. لن تترك هذا الرجل يسيطر عليها بكلماته الذكية.. ويديه البارعتين. ولا يوجد شيء تخاف منه فيما لو بقيت هادئة، وتمسكت بسيطرتها على نفسها.

كانت تعلم أن ليس دانيال ثورب لوحده من يجعلها متوترة.. إنها دائمة الصدق مع نفسها، وهي تعترف الآن بحرية بما تعرفه طوال الوقت.. إنها ردات فعلها أمام هذا الرجل، التي تجعلها متوترة قلقة. لقد مضى زمن طويل لم تتجاوب فيه مع رجل، وكانت تعتقد ان مثل هذه المشاعر قد دفنت فيها الى الأبد. ذلك الجانب من طبيعتها، والذي منذ حملت بالتوأمين، كانت تفكر فيه على أنه أمر مخجل.. خطير.. ونوع من الضعف. الآن والاستجابات العاطفية عادت للبروز حية، وهي تحقن شرايينها بالحرارة والشوق، وتجعلها تحس بالفراغ، اخذت تتمنى ان تزول مرة اخرى، وتدعها تعيش بسلام. لا تريد أن تحس هكذا.. ولا تعرف ماذا تفعل حيالها، ولا كيف توقفها، وهذا ما يجعلها تحس بالعجز أكثر فأكثر والتعرض للخطر... سألته اخيراً بصوت منخفض:

ـ حسناً.. إلى أين تقترح أن تتوجه من هذه النقطة؟

ـ الآن.. أريدك ان تصعدي معي إلى مشغل الرسم، وتجلسي أمامي لساعتين.. فالنور رائع بعد الظهر.

رفعت رأسها مدهوشة.. إنه بكل تأكيد ليس الرد الذي توقعته منه، ولقد اتهمها بأنها فاقدة التوازن.

ـ آه.. لا أظن هذا.. لدي عمل كثير بعد..

قاطعها دانيال بصوت حازم:

ـ دعي كل شيء إلى الغد.

وقف ليسير نحو الباب، وبدأت على الفور تلحق به.. لكنها توقفت فجأة... ليست مضطرة إلى أن تفعل كل شيء يأمرها به.. أدار دانيال رأسه، بعد أن أحس أنها ليست خلفه تماماً:

ـ تعالي فيلي.. أريد رسم المزيد من الخطوط قبل تلاشي النور.

بدأت ساقاها تتحركان طاعة، وتخلت عن الصراع غير المتكافىء، كي تقاومه.. حين يناديها، تلحق به.. الأمر بهذه البساطة.. كل ما تتمناه أن لا يدرك مدى تأثيره فيها.. فتسقط وسائل دفاعها في عينه. فلو كشف حقيقة أمرها، فستكون حقاً بمواجهة متاعب جمّة في المستقبل.

في الاستديو، جلست على الكرسي الخشبي المحضر لها سلفاً. وتمدد الكلبان عند قدميها، ومكثت نصف ساعة وهي تلتزم بهدوء مدهش، ودانيال يرسم بتكاسل خطوط صورتها.

وبما أنها لا تملك خياراً آخر سوى النظر اليه، فقد كان لديها وقت أكثر مما تريده للتفرّس في ملامحه وقراءة تفاصيل وجهه الغامض.. كانت تعرف تفاصيله القوية السوداء جيداً، لكنها الآن حصلت على فرصة إضافية ومؤاتية لدراسة الخطوط الأكثر دقة، خطوط فمه، البنية العظمية، الدلائل الدقيقة لطبعه عند زوايا عينيه، البشرة الناعمة التي ما زالت تحمل آثار السمرة التي اكتسبها وبلا شك في منزله الفرنسي... بعد قليل لاحظت شيئاً آخر، أدهشها، فقالت:

ـ تبدو مرتاحاً وأنت تعمل.

رفع نظره إليها وأجاب:

ـ ولمَ لا؟ أنا أقوم بشيء أتمتع به أكثر من أي شيء آخر، تقريباً أكثر من أي شيء آخر... فيلي، هل عدت إلى الاحمرار ثانية؟

ردت بانزعاج:

ـ بالطبع لا..! أنا فقط اشعر بالحرارة قليلاً.. هذا كل شيء.

رد ساخراً:

ـ وأنا من كان يعتقد أن مشغل الرسم قارس البرد.

ـ اتريدني أن اجلس هنا مدة أطول؟

ـ بضع دقائق فقط... سأنهي هذه الخطوط، وبها ننهي العمل. لقد بدأ النور يتلاشى على أي حال.

أخذ قلمه يمر على الورق بثقة كاملة، وراقبته فيلي بإعجاب.. لقد

شاهدت الخطوط التي رسمها لها، وأذهلها أنه قادر على تسجيل كل هذه الدقة في بضعة خطوط. لقد أعلنت أمها أن دانيال ثورب عبقري، ومع انها جاهلة تقريباً فيما يختص بالفن، فقد تمكنت من معرفة أن له موهبة استثنائية.

أخيراً وضع دانيال القلم من يده، ثم جلس يمعن النظر فيها لدقيقتين أو ما يزيد. فسألته متوترة، وهي تحاول جاهدة الخلاص من مخالب نظرات عينيه السوداوين القويتين:

ـ هل انتهيت؟

قال، وكأنها لم تتكلم متجاهلاً حرج انتظارها:

ـ لك بشرة رائعة.. شاحبة، لكن بكل تأكيد لها لون مميز.. وسيكون من الصعب عليّ أن أنسق الألوان تماماً.

ـ حسناً.. إنها مشكلتك، وليست مشكلتي.. هل أستطيع الذهاب؟

تجاهل طلبها وسألها بطريقة عفوية:

ـ أعتقد أنك لن تقفي أمامي عارية؟

ـ لا!

خرج منها النفي كصرير متوتر، فحاولت مرة اخرى تأكيد إجابتها مكررة بحزم:

ـ لا.

لم تبدُ عليه ملامح الدهشة ولا الغضب، بل تابع حديثه:

ـ أهناك سبب خاص لرفضك؟

ـ أظن أن الرد هو واضح، بما فيه الكفاية!

ـ ليس بالنسبة إليّ.

ـ حسناً.. حين تنهي الرسم، ستعلقه في معرض ما.. صحيح؟

ـ هذا أكثر من احتمال.

ـ ومئات، بل ألوف من الناس سيحدقون إليه، يحدقون إليّ وأنا عارية دون ملابس... و...

صمتت... فهز رأسه قائلاً:

ـ فهمت.. إذن اعتراضك الرئيسي هو أن الناس سيرونك، ويعرفون كيف هو شكلك وأنت عارية؟

ـ أجل... ألا يكفي هذا؟

ـ الأمر مفهوم بكل تأكيد.. لكن يبدو أنك لا تعارضين تماماً رسمك عارية، بل تعارضين رؤية الناس للوحة.

ـ لم أقل هذا!

رد بهدوء:

ـ بلى.. قلته.. وأظنك تقولين الحقيقة... بعد أن تتغلبي على حرجك البدائي، الكثيرات من الواقفات أمام ريشتي يشعرن بهذا الحرج، وأظنك سترتاحين وتكونين سعيدة للوقوف أمامي.. فيلي.

ـ لن أفعل.. وعلى أي حال أنت لا ترسم العري.

ـ ليس دائماً.. لكن من النادر ان اجد مثلك.. ستكونين نموذجاً استثنائياً جداً... ألا يمكن على الأقل أن تفكري بالامر؟

ـ لست بحاجة إلى التفكير. لن أغير رأيي.. إما لوحة للرأس والكتفين، وإما لا شيء.

ـ عنيدة.. ومفرطة في الاحتشام!

وردّت بغضب:

ـ ألأني أرفض نزع ملابسي أمامك...

تبدلت أساريره، ولم يعد فيها اي أثر للتسلية او المرح، وقاطعها بالقول:

ـ أتظنين أن هذا هو سبب طلبي منك؟ كي أتمتع باستراق نظرات رخيصة من جسدك العاري؟

ثم تقدم منها بسرعة، وأمسك بكتفيها قائلاً:

ـ إنه عملي.. وهو عمل شاق في بعض الأوقات... وهكذا كسبت معيشتي معظم حياتي الراشدة، إلى أن التف كادوغان هال حول عنقي... وأنا لا أمزج العمل مع اللعب. منذ لحظة دخولك هذا الباب، أنت آمنة تماماً. فأنا لست معتاداً على القفز الى المودبل، حتى قبل أن يجف

تركها... وخرج من مشغل رسمه بسرعة، صافقاً الباب بغضب خلفه. وأخذت فيلي تزدرد ريقها ببؤس، يبدو أنها تقول دائماً اشياء خاطئة، وتسيء فهم دوافعه تماماً... ثم هزت رأسها بنفاد صبر.. لا يجب أن تقلق بالها حول هذا.. إذا لم تستطع التفاهم معه.. فماذا يهم؟ لن ينتهي العالم عند هذه النقطة!

في الصباح التالي، غادر دانيال باكراً الى لندن. كان لديه اجتماع عمل هناك سيشغله النهار كله.. وهذا ما أراح فيلي.. سيعني أن ترتاح وتسترخي لبضع ساعات، وتكمل عملها دون مقاطعة..

في وقت مبكر من فترة ما بعد الظهر، دخل ماكومبر المكتبة، وقال لها:

ـ هناك شاب يود رؤية اللورد كادوغان.. ربما يمكنك التعامل معه؟

ـ أتعرف ما يريد؟

ـ لم أسأله...

ـ الأفضل أن تدفعه الى هنا.. سأرى اذا كان يمكنني مساعدته..

بعد دقيقتين، دخل شاب الى المكتبة، فاتسعت عينا فيلي فور أن عرفته. فوجهه، كوجه دانيال، من الصعب نسيانه، بنظرته السوداء، وتعابير وجهه السريعة الانفعال وعجرفته الطبيعية. حيّته بابتسامة حارة وهي تقول:

ـ مرحباً.. لقد شاهدتك من قبل... غنيت في المأدبة.. وكنت جيداً.

قال الشاب باقتضاب حاد:

ـ جئت أرى اللورد كادوغان. هل هو هنا؟

تلاشت بسمتها الودية، فشبهه لدانيال كان أكثر من شبه جسدي! وردت عليه ببرودة:

ـ لقد ذهب الى لندن... ولن يعود حتى وقت متأخر من هذا المساء... هل أستطيع مساعدتك؟

ـ لا.

وكأنه أدرك أنه لم يتصرف بأدب، فأضاف باختصار:

ـ آسف.. لم أقصد أن أكون فظاً... ربما بإمكانك إعطاء هذه للورد حين يعود.

وضع مغلفاً رفيعاً على الطاولة، فأخذته بفضول:

ـ ما هذا؟

هز كتفيه:

ـ إنه عريضة التماس.. قلت للجميع إنه لن يفيد البتة.. لكنهم أرادوا المضي قدماً به.. وها هو.

ـ التماس؟ ضد ماذا؟

نظر إليها نافذ الصبر وأجاب:

ـ كنت أظن الأمر واضحاً. إنه التماس ضد اقامة ملاعب الغولف والمركز الرياضي، طبعاً.. بضع أسماء على الاعتراض لن تقنع اللورد كادوغان لتغيير رأيه لكن البعض يظن أنهم قادرون على جعله يصغي لنداء المنطق، وأنه قد يكون منفتحاً على حجج الاقناع.

نظرت أوفيليا اليه بثبات وقالت:

ـ ربما أنت تعتقد أن تحطيم الزجاج وإتلاف دهان السيارات، هما عمل فعّال اكثر.

اربدّ وجه الشاب فوراً، واصبح شبهه بدانيال صادماً اكثر... ورد بغضب:

ـ انا لست بهذا الغباء! ما فائدة التسبب بالضرر المتعمد؟ وما إن اكتشفت ما يجري حتى وضعت له حداً.. لم تحدث حوادث جديدة مؤخراً.. أليس كذلك؟

ـ لا.. يبدو أن لك نفوذاً كبيراً هنا.

ـ لكن ليس مع أشخاص لهم تأثير.

ـ ولهذا أردت رؤية اللورد، كي تحاول إقناعه شخصياً؟

ـ لست أدري لماذا أزعج نفسي.. إنه ليس بالرجل الذي يصغي إلى

المنطق وهو لا يهتم أبداً بالقصر ولا بالأملاك. انه يريد فقط استغلالها لجني الارباح، كي يعيش عليها بفخامة.

هزت رأسها فوراً، وأضافت:

- إذا كنت تعتقد هذا.. فمن الواضح أنك لا تعرفه جيداً، ولا تفهم المشاكل الحقيقية التي يواجهها.

- كيف لنا أن نفهم وهو يرفض مناقشة أيّ شيء هنا؟ اعط هذا له.. أتسمحين بذلك؟ على الأقل سأكون قد وفيت بوعدي لإيصال الرسالة.

استدار ليخرج، فقالت له:

- لم تقل لي اسمك بعد.

نظر اليها بدهشة:

- اسمي ليس مهماً.. لكن إذا أردت معرفته، فهو ستيف.. ستيف هاوندن.

وغادر المكتبة، فحدقت إليه مصدومة بهذه المقابلة غير المتوقعة.. تذكرت كل شكوكها الاولى، وتساءلت ما إذا كان من الممكن أن تكون صحيحة... هل هذا الشاب الطويل الاسمر هو ابن دانيال ثورب؟

حتى ولو كان كذلك.. فهذا ليس من شأنها.. وبجهد كبير، أجبرت نفسها على العودة الى العمل، مع ذلك فقد أحست بالتوتر خلال ما تبقى من اليوم، وحين أدخل لها ماكومبر الشاي، اكتشفت ان قابليتها قد هجرتها.

أمضت تلك الأمسية في غرفة جلوس صغيرة.. ولأن الطقس كان بارداً، فقد أشعلت النار لتعطي الدفء. أشاعت ألسنة النار دفئاً مميزاً في الغرفة، وجلست فيلي تشاهد التلفاز لبعض الوقت، لكنها لم تجد برنامجاً يثير اهتمامها. فأخذت كتاباً تقرأه، لكنها استمرت في إضاعة خيط القصة حين كان تفكيرها يتجه في اتجاهات اخرى.

ومع حلول الساعة الحادية عشرة، اطبقت أوفيليا الكتاب وطرحته جانباً وقررت الذهاب للنوم. لم تكن متعبة حقاً، لكن قد تتمكن من النوم بعد ان تغطس باسترخاء في حمام ساخن.

ثم سمعت صوت سيارة تقف أمام الباب فأرجعت الستائر قليلاً لترى دانيال ينزل من سيارته.. كان الثلج قد بدأ يتساقط ثانية، وطبقة رقيقة منه تغطي الارض. فاسرعت تعيد الستائر إلى مكانها حين اخذ دانيال يتقدم نحو الباب.

ربما سيذهب مباشرة الى غرفته.. لقد كان يومه متعباً، ولا شك أنه يريد الاستحمام، وبعدها سيأخذ قسطاً من النوم.. ستنتظر هنا الى أن يصل إلى غرفته، ثم تصعد الى غرفتها.

لكن الأمر لم يجرِ هكذا. فما هي إلا لحظات حتى انفتح الباب ودخل دانيال، وقد بدت عليه أثقال التعب والبرد. ثم خاطب أوفيليا بالقول:

- قال ماكومبر إنه اشعل لك النار هنا.. يا الله كم أحس بالبرد! التدفئة اللعينة في السيارة لم تكن تعمل.

صب لنفسه فنجان قهوة من الابريق الكهربائي، ثم تمدد على السرير قرب النار... وسأل:

- هل أنت ذاهبة أم قادمة؟

- كنت.. ذاهبة.

- ابقي لدقائق إلى جانبي واخبريني عما جرى في النهار.

جلست فيلي على زاوية السرير، بعيداً عنه بقدر ما استطاعت دون أن تترك الأمر يبدو واضحاً، وبدأت حديثها بالقول:

- كان اليوم هادئاً... هناك بضع رسائل وصلتنا في الصباح، لا شيء عاجل... واجريت بضع تحقيقات حول حجوزات القاعة الكبرى إحداها من شركة اميركية، يريد أصحابها إقامة حفلهم السنوي هنا، سيحضرها على الأقل مئة وخمسون شخصاً، والكلفة لم تشكل مشكلة بالنسبة إليهم.

لم يبدُ عليه الاهتمام، بل انه أغمض عينه بحيث ظنته نائماً.. فحاولت التسلل دون أن تزعجه، حين تذكرت زيارة ستيف هاوندن... عاجلاً أم آجلاً سيعرف بالأمر وقررت ان تقوم بإخباره ذلك، وتنتهي فقالت:

- أتذكر الشاب الذي غنى في المأدبة؟ جاء ليراني اليوم.. إذ أنه جاء

ليراك، لكنك لم تكن هنا.

فتح عينيه ثانية، واشتد فمه قبدا كخط مستقيم.

ـ ماذا كان يريد؟

ـ أن يسلم لك عريضة.

شرحت له بسرعة ما حدث، وأخذ صوتها يرتجف وهي تلاحظ التعبير الأسود المنذر بالشر يجتاح وجهه:

ـ بكلمات أخرى يحاولون إملاء ما أستطيع وما لا أستطيع فعله بأرضي...!

ـ طبعاً لا.. إنهم يريدونك ان تفكر ثانية.. ربما تجد بديلاً آخر، لا يكون قاسياً، ولا يؤثر في الجميع بشدة.

ـ هناك بديل واحد.. اسمه الإفلاس. الحفلات وزيارات السوّاح ليست كافية.. ولا حتى بيع كل لوحاتي يمكن أن ينقذ القصر.. لكن هذا لن يقلقهم كثيراً.. فأنا لست محبوباً هنا.. ولن يمسح أحد دموعي فيما لو خسرت القصر، أو أملاكي كلها.

ـ هذا هراء! ما من أحد يريدك أن تخسر شيئاً... لكنك فجأة أصبحت محباً لأرضك.. اليس كذلك؟ أرضي.. منزلي.. قصري، أملاكي.. هل بدأت تغير رأيك في رغبتك البقاء في هذا المكان؟

مضى وقت طويل قبل أن يرد عليها:

ـ يمكن للاشياء ان تدخل دمك دون أن تدركي ان هذا يحدث. لقد عاشت عائلة ثورب هنا لمئات السنين... وأنا منها.. ثورب. هذه الأشهر الأخيرة، أطول فترة امضيتها هنا، عدا عن يوم كنت صغيراً. وأعتقد أنها الفرصة الأولى لي لأعرف المكان جيداً، وأن ادرك فعلاً انه منزلي.

ـ قلت إنك تحس أنك مسجون هنا.

ـ اجل.. وأحياناً أشعر بهذا.. لكنني مؤخراً.. بدأت أحس..

ـ تحس بماذا؟

دون توقع، ارتسمت على فمه ابتسامة استرضاء ليقول:

ـ أحس أنني ربما أستطيع أن أمضي ما تبقى من حياتي هنا.. دون أن أنتحر.

أرتفع حاجبا أوفيليا دهشة وقالت:

ـ لم أكن لأظن أنني سأسمعك تقول هذا.

ـ ولا أنا كنت أظن.. وربما ما كنت لأعترف بهذا لو لم يكن الوقت متأخراً وأنا متعب جداً... لماذا تجلسين بعيدة عني فيلي؟

سؤاله غير المتوقع أرسل قشعريرة عبر أعصابها.

ـ صحيح؟

لمعت عيناه تسلية، وقال بصوت ناعم:

ـ كم أحب هذه الألعاب التي نتبادلها.

ـ أنا لا ألاعب أحداً... ربما تظن أن في هذا تسلية، لكنني لا أجده كذلك قطعاً.

ـ آه.. لا.. نسيت.. أحياناً تحبين التظاهر بالحشمة.

وقفت على قدميها وقالت بحدّة:

ـ إنه ليس تظاهراً!

ـ إذن، لا بد أنني أتخيل أننا قضينا وقتاً ممتعاً... غير مكبوت.. منذ بضع ليالٍ؟

احمرّ وجه فيلي بشدة، وأجابت حانقة:

ـ لا شيء حدث! على اي حال، كنت متعبة، ومصابة بالدوار من جو الوليمة... ولهذا... أنا...

ـ لهذا كنت مستسلمة؟ ألا تتصرفين هكذا إلا وانت متعبة؟

لم ترد فيلي ولا تريد حتى أن تفكر بالطريقة التي تصرفت بها معه.. ووقف دانيال، ثم تحرك نحوها.. على الفور تراجعت وقد أخذت نبضاتها تدق بسرعة هائلة.

ـ أما زلت خائفة مني؟

كادت تقول نعم، أرادت أن تستسلم للتهور وتهرب. لكن شرارة كرامة صغيرة منعتها من الإقدام على ذلك، ورفعت رأسها متحدية.

ـ بالطبع لا . . لكن الوقت متأخر، وأظنني سأذهب الى غرفتي الآن.

ـ لكنني أريدك أن تبقي هنا . . . معي . . حدثيني.

ـ حول ماذا؟

ـ حول أي شيء تحبين . . أخبريني المزيد عن نفسك . . إنه موضوع سهل . . كبداية.

ـ لا . . إنه موضوع مملّ.

ـ لن أمل، هناك اشياء كثيرة أريد معرفتها عنك فيلي.

ـ مثل ماذا؟

كانت اصابعه ما تزال تمسك اصابعها بخفة، لكنها ثابتة بحيث تمنعها من جذب يدها.

ـ كبداية، أريد معرفة سبب ذعرك مني تلك الليلة.

ـ نحن لم نفعل شيئاً . . لا تستمر في قول هذا . . لا تجعل الأمر يبدو وكأن . . .

ـ وكأننا حبيبان؟ ها قد عدت إلى التلوّن بالاحمرار . . أنت حقاً فتاة قديمة الطراز . . لم تردي على سؤالي بعد.

ـ لست أدري لماذا أنت مهتم بإثارة هذه الأمور إلى هذا الحدّ.

ـ ظننت الأمر بات واضحاً لك، لا أريد لما حدث أن يحدث ثانية.

ابتلعت اوفيليا بصعوبة وقالت:

ـ حسناً . . هذا أمر سهل . . ابتعد عني وكل شيء سيكون على ما يرام.

برقت عيناه ثانية . . لكن ليس من إحساس بالمرح، وقال بخشونة:

ـ لا أريد الابتعاد عنك . . ولا أريد التفكير بأن هذا هو حقيقة ما ترغبين به.

ـ وهل أنت خبير بما أريد؟

ـ لم أصبح بعد . . . لكنني أحب أن أكون ذلك.

رنّة صوته المخملية والرخيمة أخذت تنسف كل مقاومتها . . كما أنها الليلة ليست مصابة بدوار أو متعبة، ولا يمكنها القاء اللوم على هذا،

وهمست:

ـ أتمنى لو تتوقف عن فعل هذا لي.

ـ أفعل ماذا؟

ـ تدفعني إلى موقف لا أريد أن أكون فيه.

خفت شدّة قبضته أكثر، حتى أن اطراف أصابعه فقط كانت تلامس بشرتها، وهو يقول:

ـ أنا لا أستبقيك سجينة . . . بإمكانك الهرب . . إذا أردت.

لكنها لم تستطع، ولا تعرف السبب، كانت مسمرة مكانها بنفس القوة التي لا تقاوم، والتي أبقتها مسمرة على الفراش ليلة لحق بها الى غرفتها . . . لم تكن تعرف ما هي هذه القوة، ولم تستطع أن تسميها، لكنها موجودة بكل تأكيد، وكأنها سلسلة غير مرئية تربطها به.

أحست بسعادته في رؤيتها عاجزة . . إنه رجل يحب ان ينال ما يريد . . . وما يريده الآن . . هي.

حذرت نفسها بنفسها: فيلي . . لا تدعي هذا يحدث . . تذكري إلى ماذا يقود كل هذا . . لا تكوني حمقاء ثانية لتمري بنفس الجحيم مرة أخرى . . . لكن التعقل كان قد بدأ بالفعل يتوارى من قاموس تهورها، بعد أن أحنى دانيال رأسه ليرميه على شعرها، وقال متمتماً:

ـ همم . . رائحته لذيذة.

صوته كان أكثر إغواء وإغراء من لمساته، ووجد الهمس المنخفض التجاوب المألوف في مكان ما في أعماقها. ثم بدأ الضعف ينتشر في أوصالها، يثير في طريقه موجات صغيرة من البهجة، ممزوجة بالذعر.

فكرت بجنون: اللعنة! لماذا لا أستطيع أن أكون باردة؟ لماذا أملك جسداً يقفز حياً لمجرد لمسة؟

قالت لنفسها بضعف: حسناً . . بإمكانك التمتع خمس دقائق . . مجرد خمس دقائق . . فقد يكفي هذا لارضائك، يكفي لأن يبرّد هذا التوق السيّء.

لا بد انه عرف اللحظة بالذات التي أخفضت فيها قوة دفاعاتها،

فصدرت عن حلقه حشرجة رضى.

وعندها قالت أوفيليا بتوتر:

ـ لا أريد، أكثر..

ـ انسي الآن ما تريدين وما لا تريدين.

لكنها كانت مصممة على ان يفهم ما ستقول.

ـ يجب أن تتوقف الآن... وإلا فستكون...

ـ محبطاً؟ هذا ممكن، لكنها مشكلتي، وليست مشكلتك.

ـ دانيال.. لن أنام معك.

لم يبدُ عليه الغضب، ولم يحاول مجادلتها بل قال بصوت كسول مرتاح:

ـ ربما.. وربما لا، هذا امر لا يجب أن تفكري به الآن... بإمكانك ان تقرري في الوقت المناسب.

أخذت كل الأحاسيس بالواقع تتلاشى من امامها، ومهما حاولت، لم تستطع التمسك بالواقع... آخر مرة حدث لها هذا، كانت متعبة ورأسها يؤلمها، ومصابة بالدوار، اما الآن فهي صاحية واعية تماماً لما تفعل.. وهذا ما يجعل الامر اكثر صدمة، اكثر قوة، لا يقاوم.

ـ يكفي..!

امسك بيديها بأسرها وللحظات، بقي جامداً. ثم أخذت أنفاسه تثبت، استرخى فمه بابتسامة. وقال وهو يهز رأسه:

ـ انت تتمكنين دائماً من مفاجأتي فيلي.. حين أنتظر منك أن تلعبي دور الاحتشام تنقلبي الى اغوائي! صحيح أنني أحب هذا.. لكنك قلت لي إنك لن تقبلي بمتابعة اللعبة حتى النهاية. ألا يزال هذا القرار سارياً؟ من الأفضل أن تخبريني فوراً. فبعد لحظات من هذا.. لن أتمكن من الاستماع اليك.

لكنها لم تكن قادرة على التفكير... حتى أنها لم تسمع ما قال.. لقد بدأ بالفعل يؤثر فيها.. كان يكلمها، وكانت تنسى كل مخاوفها، وكل مسؤولياتها. والأمر هكذا مخيف.. لكن من الرائع أن تحس هكذا.. إنها

تريد التمسك بالإحساس بالحرية لبضع لحظات اخرى...

هز كتفيه، وكأنما استسلم امام الاحجية:

ـ حسناً.. اذا لم تكوني راغبة في الكلام، فلا بأس بالنسبة إلي ففي ذهني أمور أخرى غير الكلام.. ولا اظنها ستنتظر أكثر من هذا.

اهتزت فجأة من السبات الحالم الذي كانت تطوف فوقه بدفء مريح، واطلقت شهقة صغيرة..

قالت مرتجفة:

ـ أنا خائفة.

ـ خائفة مِمَّن؟ مني؟

ارتجفت.. يجب أن تقول له.. هذا إنصاف.

أشاحت بعينيها عنه... وتمتمت:

ـ من أن أحمل.

وتساءلت متوترة: ما الذي سيفعله الآن؟ هل سيحاول تبديد مخاوفها؟ أيقول لها إنه سيهتم بكل شيء؟ وإن لا شيء سيحدث؟ لكنها لن تبتلع الطعم مرة ثانية، أوّاه.. أجل.. الرجال قادرون على الاهتمام بالأمور! إنهم يرتبون كل شيء ليحصلوا بالضبط على ما يريدون، يدفعون إلى الجحيم بكل النتائج.

عادت عيناها تنظران اليه، تنتظر ردة فعله متوترة. وما أن ثبتت عينيها على وجهه، حتى أحست برجفة الصدمة تسري في أوصالها... بدا وكأنها لطمته لتوها!

تراجع عنها، وكل أثر للرغبة اختفى عن وجهه... ولأول مرة منذ عرفته، خافت منه... وسألت:

ـ ماذا جرى؟

ـ ماذا جرى؟ دعيني أقول لك بالضبط ماذا جرى... انها نكتة مروّعة.

وهمست:

ـ لست أفهم!

وقف دانيال قائلاً:

ـ بالطبع لا تفهمين. لكن هذا لأنني لم أخبرك بعد بمعلومات خاصة عن نفسي.. فما من فرصة لأن أجعلك.. او أية امرأة اخرى... حاملاً.. أتريدين معرفة التسمية الطبية لهذا؟ العقم.. أنت آمنة تماماً معي فيلي... الليلة، وفي كل ليلة قادمة.. ولما تبقى من حياتي اللعينة!

لم تستطع التفوه بكلمة.. لكن هذا لا يهم.. فقد خرج بسرعة من الغرفة، وتركها في صمت فارغ، كل ذرة فيها ترتجف بهدوء، متأثرة بقوة الصدمة الناجمة عن إعلانه..!

* * *

٨ ـ لا تتركيني وحدي هنا!

لم يغمض لفيلي جفن تلك الليلة. في الصباح، كانت مثقلة العينين، مصابة بصداع مؤلم سببه التوتر. أمضت وقتاً طويلاً تستحم، ترتدي ثيابها، حتى حين انتهت، بقيت في غرفتها لدقائق إضافية كأنها تشعر بعقدة الذنب تلاحقها.. مع أنها كانت خجلى من الاعتراف حتى لنفسها، فقد كانت تحاول تأخير اللحظة التي ستواجه دانيال فيها. لم تكن تعرف ما ستقول له.. او ربما كانت خائفة من قول الكثير. ولم تكن تدري كيف ستتمكن من التعامل مع ما كان قد بدأ في الحدوث بينهما.

وبما أن من المستحيل التأجيل إلى ما لا نهاية، نزلت اخيراً. كان ماكومبر قد حضر مقعدين حول طاولة الإفطار، لكن، ما من اثر لدانيال. إما انه ما زال نائماً، وهذا غير محتمل، وإما أن يكون قد استيقظ باكراً وخرج... ليلة أمس، قال لها شيئاً، القليل من الناس في هذا العالم يعرفونه.. هذا إذا كان هناك من يعرفه. ولا شك انه نادم بعمق على اعترافه المفاجيء لكن، بما أن من الصعب سحب اعترافه، فلا بد أن يفعل ما هو الافضل، ويتجنبها..

تركت معظم فطورها دون مساس، ووقفت متجهة الى المكتبة.. لكنها لم تستطع التركيز على العمل، وبعد ساعة، تراجعت في كرسيها الى الوراء تنظر أمامها دون أن ترى.

إنها بحاجة إلى الذهاب الى البيت.. لو امضت بعض الوقت مع التوأمين، لربما ساعدها هذا على إعادة حياتها الى سيرتها الأولى، إنها بحاجة الى ضمهما الى صدرها، معانقتهما، اللعب معهما، حملهما،

القيام بكل الاشياء التي تساعد على استعادة طبيعة حياتها. ربما بعد ذلك يمكنها ان تبدأ بنسيان دانيال ثورب.. ولا يجب أن يكون هذا أمراً صعباً.. أما الآن، فهي تحس بالأسف العميق عليه، ومستعدة للاعتراف بهذا. لا بد أن الامر هو مدعاة للرهبة والوجوم، أن يدور المرء في قصر ضخم كهذا لوحده.. مع العيش بمعرفته أنه لن يحصل أبداً على عائلة له لتملأ الغرف الكبيرة الفارغة إلا من الصدى، بضحكات وثرثرات أطفال.. تركت نفسها تفكر كثيراً بالموضوع، حتى انها بدأت تحس بالإشفاق عليه، لكنها لن تفعل هذا.. لن تستطيع التحمل. فحياتها مليئة بالعوائق والصعوبات. وتحتاج الى كل قواها كي تتغلب عليها وتؤسس حياة جيدة لها وللطفلين. فهما أول مسؤولياتها، والمسؤولية الوحيدة. ومن الافضل ألاّ تنسى هذا.

صعدت إلى الطابق الأعلى، وجاءت بمعطفها ومفاتيح سيارتها. ثم تركت القصر بهدوء، ركبت السيارة، وادارت المحرك. وهي تبتعد لم تستطع مقاومة نظرة سريعة الى الخلف من فوق كتفها. تحت غطاء خفيف من الثلج، بدا كادوغان هال، كشيء يخرج من حلم.. واستعدت لأن تعترف، أنها ليست واثقة من أنها ستعود.. بالطبع لم تنس ذلك العقد، لكنها لا تظن أن دانيال سيلزمها به، بعد ليلة أمس.

وصلت إلى نهاية الطريق الداخلي للقصر، ووجهت السيارة نحو الطريق الريفية. الطبقة الرقيقة من الثلج، جعلت الطريق محفوفة بخطر الانزلاق. فركزت على قيادتها.. مسرورة بأن يكون أمامها شيء تستطيع تركيز افكارها عليه.. في الطريق أمامها منعطف حاد... فخففت السير، الى درجة الوقوف تقريباً، وهي تعلم ان عليها الحذر، وما إن استدارت عن المنعطف حتى شهقت.. شخص ما لم يكن حذراً.. وقد انزلقت سيارته على الطريق وغارت مقدمتها في طبقة سميكة من الثلج على الجانب البعيد.

تمكنت فيلي من التوقف دون أن تصدم السيارة الاخرى.. ثم عرفتها.. وبدأ قلبها فجأة يضج بالضربات المتلاحقة بجنون.. جزء من

اللحظة بعدها، وكانت تخرج من السيارة مسرعة الى الأخرى.

فتحت بابها وأحنت رأسها كي ترى من في داخلها.

ـ دانيال! دانيال!

كان مرمياً فوق المقود، ولا يستجيب لندائها.. باحساس غامض في أسفل معدتها، لاحظت أنه لم يكن يضع حزام الامان.

ـ احمق!

كادت تبكي، وأخذت ترفع رأسه، لكنها توقفت.. فهي لا تعرف مقدار إصابته... وقد تؤذيه لو حاولت تحريكه.. ثم ليس هناك من طريقة تستطيع فيها إخراجه من السيارة لوحدها فهو ثقل ميت تماماً.

بارتجاف عنيف، تراجعت، ثم حدقت إلى الطريق في كلا الاتجاهين.. ليس من أحد على مرمى نظرها! ماذا ستفعل بحق الله؟

ثم تنهد دانيال، فعادت اليه تسأل بقلق:

ـ هل أنت بخير؟ دانيال.. قل شيئاً... أرجوك.

تمكن من رفع رأسه، لكن من الواضح أنه لا يعرف أين هو أو ما الذي حدث. كان الدم ينزف من جرح في جبينه فوق وجهه وبإحدى يديه كان يمسك ضلوعه، وكأنما بالغريزة يفتش عن المكان الأكثر ألماً.

تأرجحت في تفكيرها ما بين البقاء معه، وبين معرفتها أنها يجب أن تذهب لتحضر العون. عادت فيلي للنظر إلى الطريق.. ثم شهقت ارتياحاً حين شاهدت طيفاً قادماً من بعيد.

لوحت بذراعيها نحوه ثم صاحت:

ـ هاي!

كائناً من يكون، إنه يركب دراجة، يخوض بثقة غمار الثلج المتراكم والأرض المجلدة.. ثم اقترب، وتعرفت فيلي فجأة على الوجه الشاب الأسمر، سنيف هاوندن... وللحظات أحست بالارتياك، الأمر سيكون أسهل بكثير لو أن شخصاً آخر جاء للمساعدة، ثم دفعت كل تفكير سيّء جانباً، إذ ليس هذا الأمر مهماً الآن. بل المهم، أن تعيد دانيال الى البيت.

نزل سنيف عن الدراجة، وتقدم نحوها بسرعة.. ثم غطت وجهه

تقطيبة حين شاهد راكب السيارة المصدوم. وقال:

ـ أظن أن الأبله عبر المنعطف بسرعة!

ـ هذا غير مهم الآن.. يجب أن تساعده.. يجب أن تفعل!

ـ لن يوافق على هذا.

ـ ربما لا.. لكنني أنا سأكون شاكرة لك جميلك.

نظر اليها ستيف بحدة، نظرة كانت قدرتها في الإثارة تماثل قدرة دانيال التي لا تزال مطبوعة في ذاكرتها، ثم قال:

ـ حسناً.. إذن.. لنلقِ نظرة عليه.

اندس الى جانبه في المقعد الأمامي، وتفحص الجرح في جبينه وأعلن أخيراً:

ـ لا أظن أن هناك كسوراً.

ـ أواثق انت ممّا تقول؟

ـ طبعاً لا.. لست خبيراً... لكنني اعتقد أنه كان سيثير الضجيج لو أن فيه شيئاً مكسوراً.

ـ إذا كنت تظن أن دانيال سيثير ضجة لأجل عظم مكسور، فأنت لا تعرفه جيداً... أيمكننا وضعه في سيارتي؟ هكذا أعيده الى المنزل... يجب أن يراه طبيب.

ـ من الأسهل ان نحركه عن المقود الى المقعد الآخر، ثم أقود السيارة بنفسي، وتلحقين بنا.

بتعاون، نصف موافق، من دانيال النصف واعٍ، تمكنا من نقله كي يجلس ستيف وراء المقود.. وبحركات خبير، أخرّج السيارة من المكان الذي علقت فيه، وصوّب مسارها، ثم رفع إبهامه الى فيلي قائلاً:

ـ ليس فيها شيء خاطىء، ما عدا بضع خدوش خارجية. أراك في القصر.

أسرعت الى سيارتها ثم انطلقت خلفهما. وما ان وصلت حتى كان ستيف قد أوقف السيارة الأخرى أمام المدخل الرئيسي. فقفزت أوفيليا من سيارتها تركض، لتجد أن دانيال قد استعاد وعيه.. عيناه مفتوحتان تماماً،

مع أنه لم يركز على شيء بعد، لكنه كان يعي ما يجري حوله.

سألته بقلق:

ـ كيف تشعر؟

ـ سأكون أفضل حالاً حين أدخل الى الداخل.

تحرك ليخرج من السيارة، لكن من الواضح أنه كان يستهين بإصابته ويبالغ في درجة استعادته وعيه. فاصطكت ساقاه وعلا العبوس وجهه.

نظر ستيف إليه ببرودة وقال:

ـ يبدو لي أنك مضطر إما إلى قبول المساعدة، أو البقاء حيث أنت.

اربدّ وجه دانيال غضباً، لكنه كان منطقياً بما يكفي ليعترف أن ستيف على حق. وبعد توقف طويل، هز رأسه باقتضاب، ومد يده إلى الشاب.

كان على وجه ستيف تعبير غريب وهو يمسك باليد الممدودة إليه. ثم وضع ذراع دانيال حول عنقه، وأوقفه على قدميه، ليتخفّف من قسط كبير من وزنه، ويبطء شقا الطريق معاً الى الداخل.

اخيراً أصبح دانيال جالساً بارتياح على كرسي في غرفة الجلوس... وتنهدت فيلي ارتياحاً وقالت:

ـ سأتصل بالطبيب.

فقاطعها دانيال فوراً:

ـ لست بحاجة الى طبيب... اصبت ببضع كدمات فقط، هذا كل شيء، وليس من داعٍ للقلق على وضعي الصحي.

قال ستيف:

ـ هناك جرح في جبهتك، وهذا على الارجح بحاجة الى معالجة.

استدار ستيف الى فيلي:

ـ اتصلي بالطبيب.

نظر دانيال إليه وقال:

ـ يبدو أنك تأخذ الكثير على عاتقك!

لكن ستيف لم يبدُ عليه الخوف منه، بل قال بهدوء:

ـ أعتقد هذا.. هل تقول لي إن ليس لي الحق؟

لدهشة فيلي، أشاح دانيال بنظره، ثم قال بحدة:

ـ أعرف ان أسمك ستيف، واعتقد أن هذا اختصار لاسم ستيفان؟

ـ أجل، هذا صحيح.

لم تفهم فيلي ما يجري بينهما.. كانا مثل وحشين حيوانين قويين ليس من المتوقع ان يشعرا بشيء سوى بشعور العداء والكراهية، ولكن، وجدا الآن انهما منجذبان الى بعضهما بعضاً بطريقة لم يفهما دوافعها.

تذكرت أوفيليا بسرعة أن عليها الاتصال بالطبيب... فخرجت لتجد ماكومبر، وتشرح له بسرعة حقيقة ما حدث وطلبت منه اسم الطبيب المحلي، وتطوع ماكومبر باجراء الاتصال، تاركاً فيلي حرة للعودة الى غرفة الجلوس... وحين دخلت، وجدت أن ستيف قد رحل واختفى، فسألت دانيال باستغراب:

ـ هل طردته؟

ـ أتعنين أنني رميته الى الخارج بالقوة؟ لا.. لم أفعل... قد أكون أفضل حالاً، لكن لا أظن أنني قادر على فعل هذا.

ـ تعرف تماماً ما أعني.. آسفة... لم أقصد الصراخ في وجهك. رؤيتك أخافتني حتى الموت، والآن لا أفهم ما يجري...

ـ تعالي واجلسي.. اعتقد انك تستحقين المزيد من الشرح والإيضاح.

جلست أوفيليا على كرسي قبالته للجهة الاخرى من النار، والتوى فم دانيال بتلك البسمة المألوفة الساخرة.

ـ ما زلت تبتعدين عني..؟ لا تقلقي، لست ألومك.. ليس هناك الكثير من الضمانات المستقبلية التي تبرّر أمر الارتباط برجل مثلي.

«رجل مثلي» استخدم هذا الوصف مرة من قبل، بعد وقت قصير من وصولها إلى القصر. لكنها الآن تعرف ما يقصد، رجل غير قادر على منح المرأة ولداً، رجل لا يمكنه إعطاء سوى علاقة فارغة، حسبما في تفكيره.. شيء ما في داخلها أخذ يتلوى بحدة، وهي تشاركه بصمت الألم الداخلي المستمر.

ربما استطاع دانيال قراءة ما على وجهها من إمارات الحيرة بسهولة أكثر مما تعتقد، فقد تحرك فجأة بقلق وقال:

ـ ظننت أنك تريدين معرفة المزيد عن ستيف.

هزت رأسها.. فتابع:

ـ ظننتك خمّنت الأمر الآن.

ـ لفترة ما ظننت نفسي فعلت.. حين شاهدت الشبه بينكما كنت واثقة من أنه ابنك.. ثم قلت لي...

صمتت فجأة، وقد ادركت انها تخوض في موضوع محرّم قد ينكأ جرحاً مندملاً في أعماقه.. لكن دانيال لم يضطرب.. مهما كان شعوره فقد وضعه تحت السيطرة الكاملة، ثم توجه إليها بالحديث قائلاً:

ـ قلت لك إن لا أمل لي في أن أنجب... ثم ان لا فارق في السن بيننا سوى عشر سنوات. قد أكون طفلاً سيئاً، لكنني لم أكن متقدماً هكذا.

ـ إذن.. من هو ستيف؟

ـ كان يجب أن تعرفي هذا بنفسك لو عرفت اسم أبي.. اسمه ستيفان...

نظرت اليه بدهشة:

ـ وستيف سمي على اسمه؟ إنه ابن أبيك؟ لكن هذا يجعله...

ـ اخي نصف الشقيق... صحيح أنه غير شرعي، لكنه من آل «الورب» قطعاً.

ـ هل هذا صحيح؟ هل قال لك ستيف هذا؟

ـ ليس بحاجة.. حين أكون وجهاً لوجه معه، أكون وكأنني أنظر الى مرآة لعينة.

ترددت فيلي للحظات، ثم قالت:

ـ وكيف تشعر إزاء الأمر؟

ـ لم يكن لدي الوقت لأعتاد على الفكرة.

ـ ألم تكن تدري حقاً أن لك أخاً نصف شقيق؟ ألم تسمع اية إشاعات حول الموضوع؟

هز دانيال كتفيه وقال:

ـ سبق وأن قلت لك.. أمضيت معظم حياتي بعيداً عن هذا المكان.

ـ لكنك عدت منذ اشهر طويلة الى هنا.

ـ اجل، لكن ستيف لم يكن هنا عند عودتي.. كان في لندن ينهي دراسته في إدارة الاعمال، ولم يعد إلى هنا سوى منذ أسابيع فقط.

ـ أتظن أن أخاك ويليام كان يعرف بهذا الأمر؟ على أي حال، عاش هنا عدة سنوات قبل أن يموت.

ـ لو كان يعرف، فهو لم يقل كلمة عن الموضوع، وهذا ليس عجيباً، فلقد كان يصرف جلّ اهتمامه على رعاية كادوغان هال والأملاك. ولن يرغب في أن يعترف بوجود أخ غير شرعي له، قد يكون له مطلب في جزء منها.

أجفلت فيلي، فهذه النظرة لم تتبادر الى ذهنها من قبل وقالت:

ـ آه.. تعني أن ستيف قد يحق له بجزء من الميراث؟

بدا عليه التعب فجأة، فأجاب باعياء:

ـ لست أدري في الواقع.. أعتقد أن هذه مشكلة قانونية يجب أن نواجهها في وقت ما.. أما الآن، فرأسي يؤلمني بشدة، حتى أنني لا أستطيع التفكير جيداً، بشأن اي شيء.

طمأنته أوفيليا قائلة:

ـ سيصل الطبيب حالاً. من الأفضل أن تجلس هادئاً إلى ان يصل.

لكن دانيال لم يكن يصغي إليها.. فقد تمدد فوق الكرسي وأغمض عينيه، ولم يعد يتحرك أو يتكلم الى أن وصل الطبيب.

لراحة فيلي، وبعد فحص دقيق، أعلن الطبيب ان دانيال لا يعاني من إصابات خطيرة. ضلوعه مرضوضة، لكن لحسن الحظ ليست مكسورة، والجرح على جبهته، يحتاج فقط الى غُرز صغيرة بعد تنظيفه، وترك له الطبيب بضع حبوب تسكّن له الألم في رأسه وضلوعه، وأمره بأن يلازم الفراش ليومين على الأقل، واعداً بزيارته في الصباح التالي للاطمئنان إلى مسار صحته.

بعد رحيل الطبيب، حاولت فيلي بمساعدة ماكومبر ان تقنع دانيال بالصعود الى السرير. لكنه أصرّ على أنه مرتاح تماماً فوق الكرسي. وأغمض عينيه، حين حاولا الجدال معه... فسارعت فيلي إلى إحضار غطاء. بينما اشعل ماكومبر النار في المدفأة. وتركاه لينام ويتخطى اسوأ وقت ما بعد الحادثة. ووعد ماكومبر بأن يراقبه دائماً خلال الليل. وهكذا ذهبت فيلي اخيراً الى النوم. تحس بتشتت أفكارها يفعل أحداث اليومين الاخيرين.

وخلافاً لكل التوقعات، نامت دون أن تهتز، ربما لأنها كانت مرهقة تماماً من جرّاء ما بذلت من جهود طوال نهار أمس.. وفي الصباح، فتحت عينيها، متثائبة بنعاس. ثم تذكرت فجأة كل شيء حدث بالأمس. فارتدت الروب. وأسرعت الى الطابق الأسفل.

وعند وصولها إلى غرفة الجلوس، دفعت الباب بقلق. ثم توقفت جامدة. الكرسي الذي أمضى دانيال عليه ليلته كان فارغاً.. فهل صعد الى غرفته؟ هل هو بخير؟

استدارت. وكادت تصطدم بماكومبر. وسألته بالحاح:

ـ أين هو؟

برز على وجه ماكومبر تعبير غير مرضٍ، وقال بصوت خائف:

ـ خرج يتمشى مع الكلبين.

ـ يتمشى؟ لكنه يجب أن يلازم الفراش.. يرتاح! هل الرجل مجنون؟

ـ قال اللورد إنه بحاجة الى هواء نقي.. فذكرته بأوامر الطبيب لكنه قال...

قلب ماكومبر فمه. ثم شد شفتيه بغير رضى وأكمل...

ـ لا أذكر كلماته بالضبط.. لكنها كانت في سياق أوامر بأن لا أتدخل في أموره، وأن أعتني بشؤوني الخاصة.

ـ إذن.. فهو أفضل حالاً هذا الصباح.

ـ هذا ما استنتجته كذلك. لكن الطبيب سيحضر بعد قليل.. ليعطي رأيه فيه.. على فكرة، ثمّة شاب ينتظرك في المكتبة. لقد وصل منذ

قليل، وقلت له إنك ما زلت في الفراش، لكنه أصرّ على الانتظار.

أطرقت أوفيليا مفكرة، ثم صفا وجهها وقالت:

ـ الشاب؟ آه.. تعني ستيف هاوندن؟ هل انتظر طويلاً؟

ـ بضع دقائق فقط.

ـ إذن من الأفضل أن أراه.

نسيت إنها ما زالت حافية القدمين لا ترتدي سوى روب النوم، وسارعت إلى المكتبة.. وهي تدخل، استدار ستيف من تفرسه في رفوف الكتب، ولاحت ابتسامة إعجاب على زوايا فمه. وكانت البسمة تذكرها ببسمة دانيال، حتى أنها احمرّت خجلاً. وهو يقول وابتسامته تزداد اتساعاً:

ـ إذا كنت تتجولين في المنزل هكذا كل صباح، فلا بد من أنك ستدفعين اللورد كادوغان الى الجنون.

شدت قبلي روبها حول جسدها بإحباط، وربطته وهي تقول:

ـ بكل تأكيد لا أفعل هذا! على اي حال أليست هذه طريقة رسمية في مناداة أخيك النصف شقيق؟

تسمّر ستيف في مكانه لحظات معدودة، ثم قال:

ـ هل اعترف بمن أنا؟

ـ صعب أن ينكر.. اي انسان ينظر إليكما، يرى بوضوح أثر رابطة الدم، وتماثل الملامح.

ـ لكنه لم يعترف بهذا من قبل.

ـ ليس بالأمر العجيب، فهو لم يكن يعرف بوجودك.

ـ وكيف لا يعرف.. شقيقه ويليام كان يعرف بكل تأكيد.. مع أنه أوضح تماماً أنه لا يريد أية صلة بيننا.

ـ من الممكن أن يكون ويليام قد عرف.. لكنه لم يقل شيئاً لدانيال. وحين ظهرت في تلك الحفلة، كان هذا أول فكرة لدانيال عن وجودك. وأظن أن الامر نزل عليه كالصاعقة. لماذا جئت تلك الليلة؟ لمجرد سلوك شيطاني؟

اعترف على مضض:

ـ شيء من هذا.

ـ ولماذا انت هنا هذا الصباح؟

بدا أنه لا يريد الجواب، لكنه اجاب بحذر:

ـ لأرى إذا ما كان بخير.

هزت أوفيليا رأسها راضية وهي تقول:

ـ من المستحسن أن تهتم به.

ـ هناك بضعة اشياء أريد قولها له.

ـ أي نوع من الأشياء؟

ـ أن لا داعي لقلقه، فلن أقلب هذا الأمر برمته الى فضيحة. ولن أقيم دعاوى قضائية محرجة، الابن غير الشرعي يحاول المطالبة بحصته من ثروة العائلة.. وهذا سيفضح الكثير من الأسرار التي لا تزال طيّ الكتمان.

ردت أوفيليا بهدوء:

ـ لا أظنه فكّر أبداً في أنك قد تفعل شيئاً كهذا.

بدت على ستيف الحيرة، ثم قال:

ـ ألم يفكر بهذا؟ لماذا؟

ـ لأنكما متشابهان أكثر مما تدرك بعد.. لماذا لا تعود إلى رؤيته بعد يومين، حين يكون افضل حالاً؟ ربما سيكون امامكما الكثير لتتكلما عليه.. وأظن أن من المفيد له ان تكون قربه، فلا يوجد الكثير من الناس المقربين له من حوله.

ـ لديه أنت.. أليس كذلك؟

تصريحه الجريء جعل نبضات قلبها تكاد تتوقف، فتنفست عميقاً، وهزت رأسها قائلة:

ـ لا... مهما كان ما تفكر فيه، فأنت مخطىء.

سألها ستيف بخبث:

ـ صحيح؟

ردت بحزم:

ـ اجل.. أنا أعمل له.. وهذا كل شيء.. الأفضل أن أذهب الآن لأرتدي ثيابي، أمامي الكثير من الأعمال.

ـ حسناً.. أستطيع فهم التلميح.. لكن بما أن الجميع أصبح فجأة صادقاً، فلماذا لا تكونين صادقة ايضاً.. انت تحبين اخي، ومما رأيته، هذا أمر جيد. واظنك الانسانة المناسبة له تماماً فيلي.

تركها ستيف بعد أن القى هذه القنبلة الصغيرة، فوقفت فيلي في منتصف المكتبة، ترتجف بصمت.. لماذا قال ستيف هذا بصوت مرتفع؟ حتى الآن، تمكنت بنجاح من إقناع نفسها أن هذا لم يحدث... لكن يبدو أنها لن تتمكن بعد الآن أن تهرب من الحقيقة.. ارتجفت ثانية، وتساءلت ما الذي ستفعله بحق السماء؟

صعدت إلى غرفتها ببطء، وهي تأخذ حماماً طويلاً، لقد توصلت الى قرار، إذ ستبقى هنا ليومين بعد، إلى أن يستعيد دانيال عافيته.. ثم ستغادر.. هذا هو افضل قرار.. بل القرار الوحيد في مثل هذه الظروف.

وما ان ارتدت ملابسها، حتى نزلت ثانية الى الطابق الارضي، واتصلت بامها لتقول لها انها عائدة في نهاية الاسبوع. بدا الاستغراب بوضوح على وجه الأم من جرّاء هذا الخبر المفاجيء، لكنها بلباقة كافية لم تطرح أية اسئلة على ابنتها، وطوال حديثها معها، كانت فيلي تسمع صوت الطفلين وهما يلعبان بما يبدو انه لعبة كثيرة الضجيج، وتقلص قلبها.. لقد تشوقت إلى أن تكون معهما، لكن ما أثلج صدرها، هو فكرة ان ما يفصلها عن الاجتماع بهما، لا يتعدى اليومين فقط.. وقالت لنفسها بشراسة: لن أتركهما مرة اخرى... ليس لمثل هذه المدة الطويلة.. وأطالت الحديث مع أمها قدر ما استطاعت، كي تصغي بشغف وشوق الى حديث الطفلين الصاخب المرح، الذي كان يطغى احياناً على صوت امها.

حين اعادت السماعة اخيراً، على مضض، أطبق الصمت المعهود في كادوغان هال حولها، وأدركت مرة اخرى كم أن هذا المكان هو فارغ... ثم فكرت بدانيال، وكيف أنه سيقضي ما تبقى من عمره في هذا الفراغ...

وأحست بإشفاق حاد يمزقها، بحيث أنها أغمضت عينيها.

بقية اليوم، كانت غير عادية تماماً، ومن الصعب تحملها.. وسرعان ما بدأت تتمنى لو أنها غادرت على الفور... لكنها لن تستطيع ترك دانيال دون إنذار مسبق... فحياته في عذاب يكفيه في الوقت الراهن، ولن يكون عدلاً منها أن تضيف إلى عذابه مشاكل أخرى، وتضاعف آلامه الجسدية والنفسية.

لحسن الحظ، لم تضطر إلى رؤيته.. فحسب قول ماكومبر، عاد من نزهته أكثر تعباً مما يمكنه ان يعترف، وذهب فوراً إلى غرفته للراحة، واخذ له ماكومبر، شراباً ساخناً مع حبتين من حبوب السيدة ماكومبر المنومة. وبعد ربع ساعة، نزل ماكومبر ليقول برضى، إن «سعادته» نائم كالطفل.

عملت فيلي بنشاط بعد الظهر، وفي المساء. كانت تريد كل شيء أن يكون مكتملاً، جاهزاً، حين تغادر... تناولت العشاء على صينية في غرفة الجلوس، ثم قررت النوم باكراً.

كانت على وشك الصعود إلى غرفتها حين دخل دانيال غرفة الجلوس، مقطباً جبينه بشدة... وسألها:

ـ من وضع تلك الحبوب المنومة اللعينة في شرابي؟

ـ حين تجاهلت أوامر الطبيب، ولم تبق في الفراش، قرر ماكومبر أن يفعل شيئاً... وفعل ما هو صواب.. تبدو الآن افضل حالاً بكثير بعد نوم جيد.

رد بغضب:

ـ من الأفضل له أن لا يفعل شيئاً كهذا مرة اخرى... فالخدم امثاله يمكن استبدالهم بسهولة.

ابتسمت فيلي وقالت:

ـ أظن أن ماكومبر من الصعب استبداله.

لم يقابل ابتسامتها بمثلها، بل ركز نظرته القاسية الغريبة عليها وهو يقول:

ـ لم أكن واثقاً أنك ستكونين هنا حين نزلت.

ـ لماذا لا أكون هنا؟

ـ لأنني أحسست أنك على وشك الهروب مني.

كلامه هذا هو الأقرب إلى الحقيقة، وأدارت وجهها عنه. هل هذا هو الوقت المناسب لتقول له انها قررت تركه بعد يومين؟ لا.. إنها لا تشعر برغبة في اخباره بعد ومفاجأته.. ستقول له ذلك عند طلوع الصباح.

مدد دانيال نفسه فوق كرسيه المعتاد، ثم تثاءب فجأة وقال بصوت متقطع:

ـ اللعنة على تلك الحبوب المنومة، ما زلت نصف نائم.

وقفت أوفيليا، وهي تهمّ بالانصراف قائلة:

ـ سأتركك، بإمكانك الاغفاء قليلاً.

ـ لا!

الكلمة المنفردة الحادة، كانت كافية لإرجاعها الى مقعدها. لماذا تنفذ دائماً بطواعية ما يأمرها به هذا الرجل؟ لطالما تفاخرت بنفسها أن لها شخصيتها الخاصة، لكن بوجوده، تبدو مستسلمة دون مقاومة.

وأخيراً قالت، وهي تحاول ملء فراغ الصمت الممتد بينهما:

ـ زارنا ستيف هذا الصباح...

ـ ماذا كان يريد؟

ـ أن يطمئن إلى صحتك.

اتسعت عيناه قليلاً، وأحست بأنه مسرور.. ثم سأل:

ـ أهناك شيء آخر؟

ـ أرادك أن تعرف أنه... لا يريد شيئاً منك. لن يعلن للناس أنه واحد من عائلة «ثورب»، ولن يطالب بأي شيء.

ـ همم...

همهمته التي لا تلزمه بقول شيء جعلتها تنظر اليه وتسأله بحدة:

ـ أهذا كل ما ستقوله؟

ـ في الوقت الحاضر.. أجل.

ومن لهجته فهمت أنها لن تستطيع جرّه الى المزيد من الاعترافات

حول الموضوع. ولم يحاول هو نفسه كذلك ان يفعل شيئاً او يتحرك او يتكلم، بل جلس ببساطة يحدق مفكراً إلى ألسنة النار المتراقصة في المدفأة. فسألته:

ـ بماذا تفكر؟

استدار، وركز نظره فيها، ولمعت عيناه قائلاً ببطء:

ـ كنت أتساءل الى أين ستذهب أنت وأنا من هذه النقطة.

تمنت على الفور لو انها لم تسأل، وقالت مرتجفة:

ـ لن نذهب الى اي مكان.

ـ لن تذهب؟

ـ أنت لا تنوي الزواج... وانا لا أبحث عن... اي نوع آخر من العلاقات.

ـ اتعنين أنك من النوع الذي يمد يده دائماً الى خاتم زواج؟ لست واثقاً بأنني أصدقك فيلي.. ما أعتقده أنك قد تصبحين منفتحة امام الاقناع.

ارتعبت لنوع «الاقناع» الذي قد يقوم به، ومن قدرتها على التماسك ضده، وجمدت.. فتابع:

ـ لكنك على حق.. أنا لا أنوي الزواج.. ولن أغير رأيي في الموضوع. فإذا كنت لن أستطيع إنجاب الأطفال، فما الفائدة؟

كانت نبضاتها تتسارع حتى أقصى سرعة لها.. ثم قالت متلعثمة، وهي تجد صعوبة في إخراج الكلمات من فمها:

ـ هل أنت واثق أنك... عقيم؟ قد يكون هناك خطأ ما؟

تجهم وجهه، وقال بحدّة:

ـ حين يكون في المرء عيب كهذا، لا يأخذ كلمة أي شخص دون بحث، بل يأخذ رأياً ثانياً وثالثاً... وحين يجمع الكل على الأمر نفسه، يتقبله اخيراً كحقيقة لعينة.

ـ وكيف عرفت؟

في البداية ظنته لن يرد. ثم رفع رأسه وبدأ الكلام، بصوت منخفض يخلو من أي تعبير:

ـ كان لي علاقة طويلة الأمد مع فتاة كانت معي في الجامعة وتحدثنا في الزواج، لكنني لم أكن أحس أنني مستعد لهذا النوع من الالتزام... وقلت لها إنها لو حملت، فسنتزوج. مضت على علاقتنا سنة حين جئتها صباحاً لأجدها تبكي.. أخيراً اجبرتها على قول الحقيقة. وتبين لي أنها تحبني أكثر مما أدركت وتحاول ان تحمل مني، كي أفي بوعدي واتزوجها... لكن هذا لم يحدث. في البداية غضبت لمحاولتها الإيقاع بي، ثم شعرت بالأسف عليها.. كانت متكدرة منزعجة لظنها أنها هي العاقر.. وفي النهاية رتبنا أمر اجراء فحوص طبية لها.. ولم تكن النتائج هي التي توقعتها، لم يجد الأطباء فيها عيباً، واقترحوا علي إجراء نفس النوع من الفحوص.

قالت فيلي بهدوء:

ـ لا بد أن هذا كان صعباً عليك؟

ـ في البداية لم أصغ اليهم، وغضبت من كارول التي أوصلتني الى هذه النتيجة الخائبة. وبعد فترة انفصلنا، لكنني لم أستطع نسيان الأمر.. فهذا شيء يأكل نفسك ليل نهار، ولا يمكن إخراجه من التفكير. اخيراً قررت أن من الأفضل معرفة النتيجة، سلباً أم إيجاباً. ولم تأخذ الفحوص وقتاً طويلاً وكانت حاسمة.. كميات الحوينات الناشطة هي قليلة جداً... كل شيء كان طبيعياً، لكن دون ثمرة.

أجفلت فيلي للألم الذي بدا في صوته، وسألته بإشفاق:

ـ وهل من المستحيل عليك الإنجاب؟

ـ الأطباء لا يحبون استخدام كلمة «مستحيل». تشخيصهم أن فرصتي لا تتعدى الواحد من مليون. وبما أن مثل هذه الفرص من الصعب ان تأتي، مهما حاولت، فقد قالوا لي إن من الأفضل ان اتقبل منذ البداية أنني لن انجب.

ـ لكن.. هناك بدائل. يمكنك أن تتبنى طفلاً.

رده كان فورياً وعنيفاً:

ـ لا!

وكان هذا ما تتوقعه، مع ان شيئاً في داخلها، كان يتمسك بخيط رفيع من الأمل، حتى اللحظة الاخيرة. وكرر بحزم:

ـ لا.

لم تسأله لماذا، فهي تعرف، إذا لم يستطع الانجاب، فلن يستطيع إجبار نفسه على تقبل طفل غيره... وانطفأت الشعلة الخافتة من الامل في قلبها.. على الأقل، أصبحت تعرف أين تقف الآن. إنها تحب ولديها، وتحب دانيال ثورب... انها الآن مستعدة للاعتراف بحبه. لكنها لن تستطيع الاحتفاظ بالثلاثة، وعليها ان تختار... وهذا يعني عدم وجود فرصة لها.

بقلق... وقفت تقول:

ـ أنا صاعدة إلى غرفتي الآن. وأنت محق حول أمر مغادرتي.. سأرحل غداً في مثل هذا الوقت.

ـ حتى ولو كنت لا أريد لك أن تذهبي؟

لم ترد.. أو انها لم تستطع الرد.. وبدأت السير نحو الباب... وهي تحبس في قلبها أنّة دفينة.. لم تسمعه يقف، ولا أحست انه تقدم منها بصمت... أول احساسها بقربه، كان حين أمسك كتفيها وأدارها لتواجهه... ثم أحست بقساوة ذراعيه تحيطان بها، وكأنهما الطوق المحكم.. تجذبانها بقوة إليه، ثم ظلام ساخن مسبب للدوار، اجتاحها.

هذه المرة لم يكن في تصرفاته اللطف، بل جوع شديد... كان يسلبها ارادتها، يجبرها على مشاركته. كان يكاد يكتم أنفاسها، الى أن ارتجفت عاجزة، استجابة له.

ودون وعي، كانت ترد على كل حركاته.. غير واعية في هذه اللحظات لأي شيء حولها ما عدا هذا التوق الذي لا يمكن السيطرة عليه من الحب لهذا الرجل... ثم رفع دانيال رأسه، وفي عينيه جنون الوحشية، ولون أحمر قاتم يلطخ وجنتيه. وقال متحدياً:

ـ قولي لي الآن إنك لا تريدينني!

وكيف لها أن تقول... إنها غير قادرة على مثل هذا الكذب.. وتابع

بأنفاس متهدجة، لكن بصوت هادىء:

ـ أعرف ان ليس لدي شيء أعرضه عليك. لا زواج، ولا أولاد. لكن، ألا يمكنك ان تحبيني لنفسي فقط؟

اخترقت نظراته عينيها حتى بلغت روحها.. وأكمل هامساً:

ـ ابقي معي فيلي! لا تتركيني فريسة الوحدة القاتلة والأمل المتعدم والحظ العاثر.

لهجة التوسل، غير العادية في صوته، اخترقت أوصالها كالسكين، وتمنت لو تستطيع التخلي عن أي شيء لتتمكن من إعطائه ما يريد... أي شيء.. ما عدا الولدين.

قالت بصوت أجوف يخلو من الحياة:

ـ لا أستطيع.. لا أستطيع!

أخذت قبضته تتراخى، وكأنه لا يصدق أنها رفضته... فاغتنمت الفرصة، وانتزعت نفسها من بين ذراعيه.. وركضت معمية البصر إلى خارج الغرفة.

* * *

٩ ـ من يريد اللورد؟

غادرت اوفيليا قصر كادوغان تلك الليلة بالذات. ما من شيء يجعلها تبقى هناك لمدة أطول. ولارتياحها الكامل، لم يحاول دانيال منعها.. حتى أنها لم تره، وهي ترمي أمتعتها في حقيبتها، ثم تركض إلى سيارتها، وتنطلق في الظلام لا تلوي على شيء.

دهشت أمها حين شاهدتها، لكن بعد نظرة واحدة إلى وجه ابنتها المنهك المتعب الخالي من اللون، كانت حكيمة بما يكفي لكي لا تطرح أسئلة عليها. وصعدت فيلي مباشرة الى غرفة ولديها، لتجلس هناك مدة طويلة.. كان الولدان مستغرقين في نوم عميق، لكن عينيها كانتا مسمرتين على الوجهين الحبيبين، وهي تكرر لنفسها مرات ومرات، أنها اتخذت القرار الصائب... بل القرار الوحيد... اخيراً، استغرقت في النوم كما هي، على الكرسي. ولم تفتح عينيها حتى الصباح، حين استيقظت على صيحات البهجة من ولديها، وهما يتجهان إلى رؤية امهما وقد عادت لتستقر إلى جانبهما.

كان بمثابة الكفاح المرير أمامها أمر نسيان الماضي القريب، وطرح ذكريات قصر كادوغان هال في مخيلتها. لكنها بطريقة ما نجحت في ذلك.. كانت تمضي كل دقيقة راحة مع التوأمين. كي تعوضهما الوقت الذي امضته وهي بعيدة عنهما، لكن، ولسبب أهم، لأن هذه الطريقة هي الوحيدة لنسيان مشاعر الألم والبؤس التي كانت تتأجج في داخلها.

ولحسن الحظ، كان أمامها الكثير من المشاغل التي ساعدتها على عدم التفكير بواقعها.، وهذا ما ساعدها. فعدا عن مطالب الولدين، كان

لديها الكثير من العمل تلاحقه في الوكالة. صحيح ان روزي أدارت الامور بكفاءة في غيابها، لكن، هناك عدة مشاكل تحتاج الى عناية فيلي الخاصة، ورمت نفسها بغبطة وسرور للتعامل معها.

مع كل هذا.. بعض اللحظات كانت أقسى بكثير من أن تمر بها بسهولة. مثل أول صباح لها في منزل أمها، حين دخلت غرفة الجلوس وشاهدت لوحة دانيال معلقة على الجدار.

أحست أنها تلقت لكمة مؤلمة في معدتها، فوقفت مسمّرة لحظات طويلة أمام اللوحة التي تذكرها بماضٍ تحاول عبثاً نسيانه. ثم استدارت وخرجت من الغرفة بسرعة.. لم تقل شيئاً، ولا أمها قالت، لكنها حين عادت للدخول الى تلك الغرفة، لم تشاهد اللوحة هناك... ثم هناك الهاتف.. في كل مرة كان يرن، كانت نبضات قلبها تقفز بجنون، وتبدأ بالارتجاف.. كانت تتجنب الرد على الهاتف، لكنها كانت دائماً تبقى قريبة إلى أن تعرف من المتكلم كأنما هي على موعد مع مكالمة يرسلها إليها القدر... ثم تبتعد، وأعصابها مشدودة وكأنما ستنقطع في أية لحظة.

منزل أمها، الذي طالما كان مصدر راحة لها، بدا لها فجأة صغيراً ضيقاً بعد أن شهدت اتساع قصر كادوغان الشاسع. أحياناً كانت تحس برهبة الانحباس فيه، فتلف التوأمين بمعطفين دافئين، وتهرع بهما الى الحديقة لتلعب معهما او تأخذهما في نزهة.. حين تكون معهما، تبدو لها الأمور طبيعية لفترة. ولكن، ما إن يغيبا عن نظرها، حتى يبدأ كل شيء بالتهاوي من حولها.

كما أن هناك شيئاً آخر لم تكن تتوقعه.. فمع أنها لم تمكث في قصر كادوغان طويلاً، مع ذلك كانت تشتاق إليه بجنون. الجو العابق بتاريخه الطويل، الإحساس بأنه ما زال حياً منذ قرون طويلة، عبر أشخاص أحبوه وقدّروه حق قدره، المشاكل الصغيرة التي لا نهاية لها والتي كانت تبرز كل يوم وتحتاج الى الحل.. اشتاقت إلى منظر ماكومبر يسير في الأروقة وأنفه مرفوع في الهواء، وإلى عينيه الحادتين اللتين لا يخفى عنهما أي شيء

إطلاقاً... حتى أنها اشتاقت إلى الكلبين اللعينين! لكن.. أكثر من أي شيء آخر... اشتاقت إلى دانيال ثورب.. ومن الصعب جداً أن تتقبل واقع افتراقهما لما تبقى من حياتهما.

في نهاية الاسبوع الثاني.. نزلت فيلي إلى الطابق الارضي، بعد أن أسلمت الطفلين الى النوم. وارتمت فوق كرسيها، ثم لاحظت ان امها تنظر اليها بتعبير صبور، لم تألفه سابقاً منها، وهي تقول:

ـ فيلي... لماذا لا تأخذين الهاتف وتتحدثين إليه؟

تظاهرت فيلي متعمدة بعدم الفهم، وقالت:

ـ إلى من أتحدث؟

ـ إلى الرجل الذي لا يمكنني وضع لوحته على الجدار لأنك تصبحين بيضاء من الشحوب حين يقع نظرك عليها!.. إذا كان يشتاق إليك نصف ما تشتاقين إليه، فلن يكون من الصعب تسوية أي سوء تفاهم بينكما، حاولا الحديث إلى بعضكما بصراحة.

ـ الأمر ليس بهذه البساطة يا أمي.

ـ أليس بسيطاً؟ هل أنت واثقة من أنك لا تخترعين أموراً ليست موجودة؟

ردت أوفيليا بمرارة:

ـ أوّاه.. إنها موجودة! المشاكل هنا، في الطابق الأعلى تنام في الفراش!

عبست الأم:

ـ التوأمان؟

ـ أجل.. دانيال ثورب لا يمكنه الإنجاب، لكنه لا يتقبل أولاد غيره.

بعد صمت صادم قصير، أخذت الأم تهز رأسها قائلة:

ـ لا شك أن من الصعب على رجل أن يتقبل ظروفاً كهذه... لكن ربما لو التقى بالتوأمين...

ـ إنه لا يعرف بوجودهما.

ـ ألم تقولي له شيئاً عنهما؟

ـ وما الفائدة؟ له وجهة نظر مسبقة في الموضوع . . . فماذا يمكنني أن أفعل؟ أأرمي الطفلين وأذهب معه؟ أأمضي أوقاتاً سعيدة قدر ما أستطيع، وإلى الجحيم بكل شيء آخر؟

ردت الأم بحدة:

ـ لا أظن أنه يتوقع منك هذا . . . كان عليك على الأقل أن تخبريه بالحقيقة!

ـ وما الفرق؟ إذا كان لا يستطيع إنجاب الأطفال، فهو لا يريد أطفال غيره. وهذا شيء لن يتغير . . فأين يتركني كل هذا؟ يتركني حيث أنا، أحاول الحصول على أفضل ما تقدمه لي الحياة . . . لا فائدة من الاتصال به، أو الذهاب لرؤيته اذ لا مجال لأن نحل المشاكل العالقة بيننا.

بعد هذا، لم تقل أمها شيئاً . . وهو أمر قدرته لها فيلي. حتى الكلام عن دانيال كان يزيد توترها . . ولن تستطيع التخلص من التوتر إلا اذا توقفت عن التفكير به، او الحديث عنه . . . إذا استطاعت، بطريقة ما، أن تبقيه خارج حياتها، وهذا من ضروب المستحيلات!

ومع أن الوقت كان شهر آذار، فقد كان هناك طبقة بسيطة من الثلج خلال عطلة الأسبوع، دون أي تغيير في الطقس المثلج.

بعد ظهر يوم السبت، طالب التوأمان دون توقف بالخروج للعب بالثلج. وبما أن والدة فيلي خرجت لزيارة صديقة لها، فقد استسلمت أخيراً لرجائهما. لفتهما جيداً للدفء، ثم أفلتتهما في الحديقة، بطلقان شيئاً من طاقتهما المتجددة التي لا تنضب ثم ارتدت معطفاً قديماً، وشالاً صوفياً ولحقت بهما. بعد لعبة عنيفة بكرات الثلج، بدأت تصنع لهما رجل ثلج. لم يكن هناك في الواقع ما يكفي من ثلج لإتمام ذلك، لكن الولدين لم يهتما كثيراً بهذا، بل أخذا يركضان ويجمعان حفنات الثلج من هنا وهناك كي تكمل الأم جسم الرجل، وكانت تكوّر ما جمعاه، حين لاحظت أنهما صمتا فجأة.

رفعت نظرها، لتجدهما مسمرين يحدقان إلى المنزل فقالت بابتهاج:

ـ تعالا . . اجلبا لي المزيد من الثلج.

حين لم يتحرك أي منهما، استدارت لترى ما الذي يأسر اهتمامهما . . شاهدت الرجل الطويل الأسود الشعر الواقف عند نهاية الممر الموصل الى الحديقة، فتسمّرت في مكانها بدورها كما جرى لطفليها.

بدأ دانيال بالتقدم نحوها، فقال تيم متلعثماً:

ـ مامي . . .

فطمأنتهما بهدوء:

ـ لا بأس حبيباي . . إنه صديق لمامي . . اذهبا والعبا لبضع دقائق بينما أتحدث إليه.

قال توني مقطباً جبينه بإحباط:

ـ ورجل الثلج؟

ـ سأنهيه لكما بعد قليل، اجمعا لي بعض الثلج لأجعله أكبر وأجمل ممّا تتوقعان.

وبحماس ركض الولدان، ووجدت فيلي الشجاعة لتنظر إلى وجه دانيال.

كان شاحباً شديد البياض، نظرة غريبة في عينيه. للحظة ظنته سيستدير ويرحل دون كلمة . . ثم تحول فمه الى خط مشدود بتجهم . . . وقال ببعض الاحتقار:

ـ لا عجب أنني وجدت صعوبة في جعلك تتكلمين عن حياتك الخاصة . . كان يجب أن أعرف أن السبب هو شيء تريدين اخفاءه.

نظرت إليه غاضبة وقالت:

ـ أنا لست أخجل من الاعتداد بأن لي ولدين جميلين!

ـ لا؟ إذن لماذا لم تذكريهما لي ابداً؟

ـ إنه أمر لا اخبره لرب عملي إلا إذا سألني . . . أنت لا تدري كم هناك من إجحاف بحق النساء اللواتي لهن أطفال . . أرباب العمل يفترضون فوراً، أنهن سيطلبن وقت فراغ زائد للعناية بمرض الأطفال والأزمات الطارئة.

- هكذا كنت تصنفينني . . ؟ رب عملك . . ؟

- أجل . . على الأقل في البداية . . ثم كان هناك . . أسباب أخرى . لن تخوض في هذه الاسباب . . انه يعرفها كما تعرفها هي ، وأكملت :

- على أي حال . . هذا ليس من شأنك .

صاح بها بلهجة غير مصدقة :

- ليس من شأني ؟ كيف تقولين هذا بحق الله لإنسان مثلي ؟

صمت فجأة ، وكأنه لا يثق بنفسه أن يقول المزيد . فنظرت فيلي إلى التوأمين ، اللذين رفعا رأسيهما لسماع صوته المرتفع .

وخاطبته حانقة :

- لا تصرخ ! لا يعجبهما هذا ! ولن أسمح لك بإزعاجهما .

رد متجهماً :

- إذا كانا ينزعجان بسهولة ، فمن الأفضل أن أرحل . . . فبكل تأكيد لن تعجبهما رؤية ما أود فعله بك الآن !

تمتمت :

- إذن . . اذهب . لا أريدك هنا ، تقحم أنفك في شؤوني الخاصة . . وتنسى أنني قد استعدت حريتي من قبضتك إلى الأبد ، غير نادمة على شيء .

قست عيناه السوداوان وقال :

- أستطيع فهم واقع أنك لا تريدينني هنا . . فلو عاد أبوهما الى المنزل فجأة . . . سيكون من الصعب أن تشرحي له ماذا أفعل هنا . اليس كذلك ؟

بينما كانت فيلي تحدق إليه بانشداه مصدوم ، تابع بشراسة :

- قلت لك مرة أنك فتاة قديمة الطراز أوفيليا ، لكنني كنت على خطأ ، فهناك اسم آخر ، أقل جمالاً ، لوضعك !

استدار ليبتعد . . ونظرت إليه فيلي بذهول حتى اختفى . ولم تعد إلى الواقع إلا بعد أن شد الولدان معطفها . وقال توني :

- ننهي رجل الثلج ؟

بدت عليه الدهشة ، والسخط معاً ، حين حملته بين ذراعيها تحتضنه بشدة ، ويأس .

ذلك المساء ، بعد أن أوى الولدان الى سريريهما ، نظرت اليها امها مفكرة ثم قالت :

- أخبرني الولدان قصة مثيرة للاهتمام . . كانت قصة مشوشة ، لكنها تدور حول رجل جاء إلى هنا ، وأوقفك عن بناء رجل الثلج لهما . . وكانا ساخطين جداً حول الموضوع .

تنهدت فيلي وقالت :

- كنت ستعرفين بالأمر عاجلاً أم آجلاً . . إنه دانيال ثورب .

- وشاهد الطفلين ؟

- بكل تأكيد .

- و . . . ماذا ؟

- لم يبق طويلاً . . قلت لك انه لن يفعل .

- لا بد أن المسكين أصابته صدمة .

أبعدت ذكرى وجهه الشاحب عن مخيلتها وردت :

- للرجل «المسكين» اعصاب من حديد . . . أنت متحيزة إليه لأنك معجبة به . . سأذهب إلى النوم .

لكن . . كالعادة لم تستطع النوم . . في الصباح نزلت الى الطابق الأسفل متورمة العينين ، ولم تتناول فطورها . فقالت أمها :

- لماذا لا تأخذين حماماً طويلاً . . فقد تعودين إلى مظهرك الأنيق ثانية .

امتعضت فيلي وقالت بتجهم :

- شكراً كثيراً لك . من الجيد أن يكون للمرء أم شفوقة !

لكنها اطاعت أمها ، وصعدت إلى الأعلى ، وغطست متعبة في مغطس ساخن ، لتمضي ساعة في مائه العطر ، ثم بكسل غسلت شعرها وجففته .

شديدة النظافة ، ورائحتها عطرة ، عادت الى الطابق الأرضي . . في الوقت المناسب لترى أمها تعيد الهاتف إلى مكانه بسرعة . . وكالعادة ،

تسارعت نبضاتها بألم من جرّاء رؤية الهاتف. وسألت:

ـ شخص مهم؟

ـ آه.. لا.. مجرد صديقة.. أظن أن من الأفضل ان نتناول الغداء باكراً.

ـ إنه الأحد، ولا داعي للاستعجال.. ليس لدينا شيء نفعله.

ـ فكرت أن نخرج لبعض الوقت بعد الظهر.. الولدان مليئان بالحيوية، قد يدمران المنزل إذا بقيا محجوزين فيه طوال اليوم.

نظرت فيلي من النافذة وقالت:

ـ لكن الصقيع لاذع في الخارج، ويبدو أن الثلج سيتساقط ثانية. أين يمكن لنا أن نذهب؟

ـ سنجد لنا مكاناً. هيا بنا لنحضّر شيئاً نأكله.

تم تحضير الغداء، وتناولتاه، ثم نظفتا ما تبقى، بسرعة بدت لفيلي قياسية. ثم وجدت نفسها، تصعد في سيارة امها، مع التوأمين... فسألت:

ـ إلى أين سنذهب؟

ـ ستتجول قليلاً.. ولا بد أننا سنجد مكاناً نمضي فيه ما لدينا من وقت.

أدارت المحرك، وتنهدت فيلي.. من الصعب الحصول على رد واضح من أمها حين تكون في مثل هذا المزاج.. فجلست قانعة في المقعد الخلفي مع الولدين، وبدأت تلاعبهما.

مضى وقت طويل قبل أن تنظر من نافذة السيارة.. ثم عبست فهذه الطريق تبدو لها مألوفة، وبشكل غير مريح، قالت:

ـ أظن أننا يجب أن نعود الآن، لقد بدأ التوأمان بالضجر.

ردت الأم بحزم:

ـ إنهما بخير، وأنت تتوهمين.

وضغطت على دواسة الوقود، فقفزت السيارة الى الأمام بسرعة. وعادت فيلي إلى الاهتمام بالولدين، لكنها لم تستطع التركيز، إنها تعرف

هذه الطريق.. وتعرف إلى أين تقود... لكنها روّحت عن نفسها بان امها سرعان ما تستدير وتعود.. فلا مجال مطلقاً لأن يكملا الطريق.

أمام ذهولها، وعدم تصديقها الكامل، أدارت أمها السيارة نحو الأبواب الموصلة إلى قصر كادوغان.. فصاحت بها فيلي:

ـ ما الذي تفعلينه؟

ـ أفعل شيئاً طالما وعدت نفسي بأن لا أفعله.. أنا أتدخل في حياتك الخاصة.

ـ إذن.. توقفي عن هذا! واستديري لتعيديني الى المنزل.

لكن الأم أكملت طريقها بثبات.. وسرعان ما توقفت السيارة امام مدخل كادوغان هال.. في وقت لم تكن فيلي فيه تصدق أن هذا يحدث لها.

وقالت الأم بحدة:

ـ فيلي.. اخرجي من السيارة.

وهي لا تزال مصدومة، أطاعتها فيلي.. فأكملت أمها:

ـ أيها الولدان.. اذهبا مع أمكما.

ولم يكن التوأمان بحاجة الى تشجيع، فقد سئما من الانحباس داخل السيارة، وتسللا منها بأسرع ما استطاعا. ما أن أصبح الثلاثة واقفين على الطريق المرصوفة بالحصى، حتى حركت أمها السيارة وابتعدت، دون أن تلتفت إلى الوراء... فتمتمت فيلي وهي تهز رأسها:

ـ لا بد أنني أحلم.. إما هذا، وإما أن تكون أمي قد جُنت! ما الذي جعلها تفعل شيئاً كهذا بحق الله؟

بضع زخات ثلج كانت قد بدأت تتساقط.. وارتجفت فيلي.. يجب أن تتصل لتطلب سيارة اجرة تأخذها من هنا.

لكن أقرب هاتف يبعد أميالاً.. الهاتف الوحيد القريب هو داخل القصر.. استدارت بارتباك نحو المدخل.. ثم اكتشفت ان الباب مفتوح.. بل أكثر من هذا.. دانيال كان يقف هناك، يراقبها بصمت، كأنما ينتظرها منذ أمد طويل.

بطريقة ما، استجمعت شتات نفسها، وأمسكت الولدين كل واحد بيده. . . ليس أمامها خيار. . ستضطر إلى طلب استخدام الهاتف.

على مضض، صعدت السلالم المرتفعة، والتوأمان يكافحان للصعود الى جانبها، إلى أن أصبح الثلاثة يقفون أمام دانيال. . حدق توني بالرجل الطويل الاسود الشعر، ثم تذكر انه شاهده من قبل، ودون توقع ابتسم له، وعلى الفور امتد فم تيم بابتسامة مجاملة ضخمة. فالطفلان متوافقان في المشاعر والأحاسيس، فما يرضي أحدهما سيرضي الآخر.

رد دانيال البسمة بمثلها، بسمة دافئة عريضة أذهلت فيلي. . ثم حول اهتمامه إليها، فأحست باللون الأحمر المألوف يتصاعد إلى وجهها. . . فقالت بصوت مرتجف:

ـ أنا آسفة، أعلم أننا لا يجب أن نكون هنا. . لكن أمي جاءت بنا، ورمتنا على باب قصرك. . لست أدري لماذا فعلت حماقة مجنونة كهذه! لكن أعتقد أها كانت تحاول القول انه حان الوقت لتسوية الأمور. . لكنها لا تفهم أو لا تعرف كل الوقائع. . أعني. . ليس هناك شيء يسوّى. . أليس كذلك؟

رد دانيال بهدوء:

ـ على العكس. . فاعتقادي أن هناك اشياء كثيرة بحاجة الى تسوية، وأعرف تماماً لماذا جاءت بك أمك الى هنا. هذا لأنني اتصلت بها هذا الصباح وطلبت منها أن تفعل هذا بالضبط.

شهقت فيلي وقالت بدهشة:

ـ فعلت ماذا؟

ـ كنت غاضباً جداً حين تركتك ذلك اليوم. وأخذت أفكر بالطريقة التي كنت تتصرفين بها وأنت معي، الطريقة التي تعانقينني بها، وتتجاوبين بها. . ثم بدأت أتصورك تفعلين الشيء نفسه مع والد التوأمين. . أيمكن أن تحبيه، وتقبمي علاقة عابرة معي؟ حين برد غضبي قليلاً، تذكرت أنك قلت لي مرة إنك تعيشين مع والدتك. . فأدركت أن شيئاً ما شاذ هنا. في النهاية، قررت الاتصال بوالدتك. . إنها امرأة فاتنة. . ومساعدة جداً. .

سرعان ما سوّت عدة أمور هامة لي. . ألا تظنين من الأفضل لو تدخلين؟ لا يمكن أن نقف في الخارج هنا ونتكلم. . سيبدأ الثلج بالتساقط بعد دقائق.

وهي تلحق به مذهولة، أخذ التوأمان ينظران حولهما باهتمام متزايد، وإعجاب. هنا المكان الذي يمكن لهما أن يلعبا فيه ألعاباً حقيقية. ثم أقبل الكلبان الى الردهة، وذيلاهما يلوحان بكسل، وتقدما يتفحصان الوافدين الصغيرين.

نظر تيم بقلق إلى الكلب الضخم وهو يلوح فوق رأسه. . وسأل بارتياب:

ـ حصان؟

ردت فيلي مع ضحكة طبيعية:

ـ لا يا حبيبي. . . إنه كلب.

لم يبدُ على أحدهما أنه صدقها. لكنهما أخذا يتلمسان أي جزء من الكلبين استطاعا الوصول إليه. . . وتقبل الكلبان برضى واضح هذا الاهتمام. وراقبتهما فيلي بقلق، الكلبان كبيران جداً، وبالإمكان أن يرميا الولدين بسهولة الى الارض إذا لم يكونا حذرين.

لاحظ دانيال قلقها، فقال لها بهدوء:

ـ لا تقلقي. . الكلبان دائماً رائعان مع الاولاد. انهما بوداعة الحملان على الرغم من ضخامة حجم كل منهما. . ماذا لو اطلقنا الاربعة لوحدهم في القاعة الكبرى؟ هناك مساحة كافية لهم للركض والتعرف الى بعضهم.

ـ لا أستطيع تركهما لوحدهما، فهما لا يعرفان المكان، وقد يخافان.

ـ لا يبدو لي أنهما خائفان.

هذا صحيح. . فالولدان كانا قد شرعا يركضان في الممر، يلحقان بالكلبين. . . وأكمل دانيال:

ـ على أي حال، ستراقبهما السيدة ماكومبر، للتأكد من أنهما لا يتجولان بعيداً ويضيعان.

ردت اوفيليا مصرّة بعناد:

ـ يجب أن أبقى معهما.

ـ أخائفة من البقاء وحيدة معي؟

تحديه الخافت اللهجة أصاب فيها وتراً حساساً.. لأنه صحيح.. فقالت على مضض:

ـ حسناً.. أعتقد أن لا بأس من تركهما لبضع دقائق..

وضع دانيال يده بثبات في يدها، ليقودها الى غرفة الجلوس.

ـ سنترك الباب مفتوحاً لنسمع أي صراخ مفاجيء يلفت الاهتمام.

تمتمت فيلي بارتباك، وهي تشد يدها من يده:

ـ لست أفهم لماذا طلبت من أمي أن تأتي بي إلى هنا.

ـ أعرف أنك لا تفهمين قصدي... لكننا سنتطرق الى هذا الموضوع لاحقاً. قبل كل شيء، هناك بضعة أمور ستقولينها لي.

ـ حول ماذا؟

ـ حول الطفلين، كبداية. ولن أمانع في معرفة شيء عن أبيهما.

ردت بتهور غاضب:

ـ هذا ليس من...

ـ مرة أخرى تقولين فيها لي إن هذا ليس من شأني، وسأغضب جداً. لذا، ابدأي من البداية أوفيليا ليندن.. وتابعي الحديث إلى أن تصلي الى النهاية.

نظرة عينيه السوداوين كانت مسلطة عليها.. تقول لها بصمت إن لا خيار أمامها.. وإنها مضطرة إلى أن تقول له كل الحقيقة هذه المرة.

رمت نفسها على كرسي قريب، تحس فجأة بالتعب الشديد.. ثم بدأت تتكلم:

ـ إنها قصة من النوع الذي تسمع الآخرين يرددونه دائماً، وتفكر بأن هذا لن يحدث لك.. لكنني لم أكن بذلك العناد ولقد حدثت لي... عندها أدركت كم من السهل ان أقع في الشرك، وأن أكون طائشة، وأن انتهي الى ما انتهت إليه معظم الطائشات. كنت أعمل مساعدة شخصية لمدير تنفيذي في شركة صغيرة مركزها في لندن.. جاءنا عميل أميركي

مهم.. وفي آخر لحظة مرض رئيسي، فعلقت في فخ الاهتمام بالجانب الاجتماعي من زيارة ذلك العميل، الذي لم يزر لندن من قبل، وأراد رؤية بضع استعراضات، وأن يجول في النوادي الليلية، والأشياء المماثلة..

ـ ما كان اسمه؟

ـ جوني.. جوني ويلمسلو.

ـ وكيف كان شكله؟

ـ لم أعد أذكر الآن.. أيبدو لك هذا فظيعاً؟ لكنها الحقيقة! نحن لم نتكلم مع بعضنا جيداً، على الأقل ليس حول أشياء مهمة.. كان فاتناً، أذكر هذا، وكان جميلاً، ويتمتع بصحبتي، ويريد رؤية كل شيء معي.. ثم انتهى بنا الأمر ليلة دون أن نعي حقاً ما نفعل وتوجهنا إلى شقتي.. ليس لدي عذر لما حصل.. ولم يجبرني على شيء، لا أستطيع ادعاء هذا، وليس هناك سوى وصف فظ لما حصل «لقد دار كل الازرار المناسبة» ولم احتج سوى لقليل من الكلمات. كنت قد بلغت الواحدة والعشرين.. دون تجربة، وأردت فجأة أن أتعلم كل شيء عن الحياة، ولم أعد أهتم سوى بقضاء وقت ممتع.

ارتفع نظرها إلى دانيال، متوقعة أن ترى علامات الازدراء على وجهه، لكنها وجدت الاهتمام، والغضب فقط.

ـ لقد استغلك هذا الرجل.

ـ فعل هذا أم لا.. فهذا ما حصل.. حين استيقظت في الصباح، وجدته قد رحل.. ولم أستطع تصديق تصرفاتي. أحسست بالغثيان. كيف أقمت علاقة مع رجل لا أعرفه حقاً.. ولا أحبه..

ـ ماذا فعلت بعدها؟

ـ قررت أن انسى أمره وإلا فسيدفعني التفكير به إلى الجنون.. وسأتابع حياتي، مع التأكد من أن لا يحصل هذا مرة أخرى لي.

التوى فمها بابتسامة سخرية من نفسها وتابعت القول:

ـ لكن الوقت كان قد فات لمثل هذا القرار. وما هي إلا بضعة أسابيع حتى أدركت أنني حامل.. وكان أفظع يوم في حياتي.. تلاشيت..

وبقيت متلاشية حتى ولادة التوأمين.

ـ ألم تحصلي على أي دعم أو مساعدة منه؟

ـ لم يشأ أن يستمع إليّ.. حين تأكد لي الحمل، أدركت أن عليّ إخباره، فله الحق بأن يعرف.. في البداية، كنت سأكتب له، ثم فكرت بأن الرسالة قد تقع في يد شخص آخر وتبرز الفضيحة إلى العلن. فقررت الاتصال هاتفياً به.

ـ وماذا كان رده؟

ـ زعم أنه لا يمكن إطلاقاً أن يكون هو سبب حملي... وحين قال هذا، أردت أن أضربه! لكنني لم أستطع، كان على بعد ثلاثة آلاف ميل منيّ.. في اميركا... ثم قال لي إنه متزوج وله ولدان.. وهذا شيء لم يذكره لي وهو هنا! وقال إنني لو حاولت إثارة المشاكل له، فسأندم.. سيقول للجميع إنني أقمت علاقة معه مع علمي بزواجه، وانه يعرف على الأقل نصف دزينة من الرجال يمكن أن يكون احدهم سبب ما في أحشائي، حين قلت إنه لن يستطيع إثبات هذا، لأنها ليست الحقيقة، ضحك.. ثم قال إن المال هو من يتكلم، ولن يكون من الصعب عليه اختراع شهود مستعدين للقسم بأنني نمت معهم... ولم أستطع أن أصدق بأن هذا هو الشاب الدمث الفاتن الذي عرفته في لندن!

ـ أحياناً قد يكون الرجال أمثاله من الأنذال.. ألم تفكري بالإجهاض؟

ـ فكرت، لكنني عرفت أنني لن أستطيع. ليس لأسباب اخلاقية او دينية... لكنني كنت أعرف أنني لن أتمكن من فعل هذا. ثم فكرت أن أعطيهما للتبني.. كنت متأكدة من أن هذا سينهي مشاكلي وسأتابع بعدها حياتي العادية.. لكن، نظرة واحدة إلى التوأمين بعد ولادتهما، وقضي الامر.. عرفت أنهما لي، وأنني احببتهما كائناً من يكون أبوهما، وأياً كانت فظاظة معاملته لي.. وأن ما من أحد في الأرض سيجعلني أتخلى عنهما.

ـ ألم تندمي على هذا القرار أبداً؟

liilas.com
rayqh

دون تردد:

ـ أبداً.

ـ ألا يزال أبوهما يرفض الاعتراف بهما؟

ـ لقد مات، قتل في حادث سيارة منذ سنة. ما كنت لأعرف به لكنني حصلت على رسالة من محاميه يحذرني من أن لا أطالب بشيء من أملاكه، قالوا إن لا حقوق قانونية لي، لأن الأبوة لا يمكن اثباتها.. وكأنني كنت سأطالب ولو بفلس واحد!

ـ ألم يكدرك خبر موته؟ لقد كان والد التوأمين!

ـ لم يكدرني بشيء، ولم يكن والدهما بالنسبة إليّ... فوالد اي طفل هو الرجل الذي يربيه ويحبه، الذي يكون موجوداً ساعة يحتاج الطفل إليه.

ـ أتظنين أن بإمكاني أخذ هذا الدور؟

سؤاله البسيط القصير صدمها، فسألت بارتجاف:

ـ لكنك.. قلت إنك ضد.. التبني.. ولهذا قررت الرحيل، لأنني عرفت أنك لن تتقبلهما.

هز دانيال رأسه وقال:

ـ أنت مخطئة فيلي.. حين قلت إنني ضد التبني، لم يكن هذا للأسباب التي ظننتها. سأكون سعيداً لأن أتبنى طفلاً، لكنني لم أكن لأعتقد أن لي الحق في الطلب من أية امرأة ان تتقبل طفلاً غير طفلها، وتتخلى عن كل أمل في الإنجاب.

كاد قلب فيلي يتوقف.. ثم قالت ببطء:

ـ ولكن... لدي طفلان.

ـ أجل يا فيلي.. هذا ما لديك. وهذا ما يجعل الجدال كذلك «عقيماً».. لكن السؤال هو، أيمكن أن تتقبلي واقع أنك لن تنجبي غيرهما؟

ـ أستطيع العيش مع أي شيء، وتقبل أي شيء.. طالما أنا معك... ولطالما ربتني أمي على الإيمان بأن لا شيء مستحيل.. أتذكر.. لقد

اعطاك الأطباء فرصة من مليون.

ـ لا تعتمدي على هذا. لقد حاولت الصدق معك تماماً.. وفي المقابل يجب أن تتقبلي الوضع كما هو، أو سيكون هناك متاعب منذ البداية.

ثبّت دانيال عينيه في عينيها، فشاهدت فيهما موجة شك اجتاحته، ثم تمتم بشراسة:

ـ لا أريد أن أخيب أملك.

ـ مهما حدث، أو لم يحدث، فلن تخيب أملي.. ألا تعرف هذا؟

ردّ بصوت اجش:

ـ أعرف هذا.. لكنني أعتقد أنني بحاجة إلى أن تثبتيه لي!

لحظة، وكانت بين ذراعيه.. حلاوة الدفء في جسده أخذت تصيبها بالدوار.. لمسة يديه تركتها تتوق إلى لحظات أكثر حنواً.. والتصقت به، ثم تنهدت سعادة ورضى لهذا التجاوب القوي.. يداه أخبرتاها عن شوقهما إليها، شفتاه تلفظتا تكراراً بمقدار حبه لها.. والى أين سيقودهما هذا الحب. ثم بآهة حادة، أبعدها عنه.

ـ ما من مزيد، إلا اذا كنت تريدينني أن أفعل شيئاً شائناً هنا والآن، حيث يمكن لأحد أن يدخل علينا بغتة ويرانا!

فأجابت اوفيليا على التوّ:

ـ من الأفضل أن تعتاد على من يتفرج عليك، وأن يقاطعك احد في لحظة غير مناسبة ابداً.. فالولدان اعتادا التسلق الى فراشي في أي وقت احتاجا فيه الى الاحتضان.

ـ أستطيع القول إنني سأتعلم العيش مع هذا.. على شرط أن لا ينويا مشاركتنا الفراش طوال الوقت.

كان قد بدأ يعانقها من جديد حين أحسا بحركة صاخبة عند الباب.. فاستدارا معاً ليجدا التوأمين يحدقان إليهما بدهشة.. فضحكت فيلي:

ـ حذرتك من المتفرجين! ولا أظنهما سيوافقان على احتضانك لي.

رد دانيال بحزم مرح:

ـ أخشى أن يكونا مضطرين إلى التعوّد على هذا.. فهو ما سيحدث دائماً.

تركها وتقدم من الطفلين قائلاً لهما:

ـ أظن أن الوقت قد حان لتتعرف إلى بعضنا.

أمسك بيديهما، فتعلقا به بارتباك من بروزه المفاجىء في حياتهما، والذي يبدو لهما أنه مثير للاهتمام..

ـ لنبدأ في قضاء بضع ساعات معاً، ثم نرى النتيجة.

حاولت فيلي الانضمام إليهما، لكن دانيال هز رأسه:

ـ لا.. من الأفضل أن تنتظري هنا.. اعطنا فرصة لنكون وحدنا لفترة.

انسجم التوأمان معه، وظهرا هادئين على غير عادتهما. وعلى وجهيهما بدت ملامح الإثارة، وأحست فيلي بمعدتها تتقلص.. ماذا لو لم يحباه؟ ماذا لو..؟ آه.. توقفي عن هذا! اطردي من بالك هذه الهواجس الموهومة! سينجح الأمر.. يجب أن ينجح.

مرت عليها فترة ما بعد الظهر ببطء غير معهود لا يصدق.. وأخذت تذرع غرفة الجلوس جيئة وذهاباً... تقاوم بشدة التوق إلى الاندفاع والبحث عنهم. أخيراً سمعت أصواتاً تقترب.. الأصوات الثلاثة مألوفة لديها، أحدها ذكري صارم لا مجال للخطأ فيه، والآخران يثرثران بطفولية رائعة، ينطقان بأنصاف الجمل، التي غالباً ما تقتضي المزيد من الصبر لفهمها.

حين دخلوا أخيراً الغرفة، وجدت أن تيم قد جلس بارتياح على كتفي دانيال، بينما توني يقفز إلى جانبه، ويمسك يده بكل ثقة... وفور مشاهدة أمه صرخ توني بشغف وحماس:

ـ لعبنا مع الأحصنة..

ضحك دانيال مخاطباً الطفلين:

ـ إنها الكلاب وفي الغد سأريكما الجياد الحقيقية. إنها أكبر حجماً... أكبر بكثير.

كادت عينا توني تقفزان من مكانهما لفكرة وجود شيء أكبر من الكلبين... وأكمل دانيال:

ـ هيا تيم... انزل.. ثم اذهب مع توني لتناول الشاي.. لقد أمضت السيدة ماكومبر طوال فترة ما بعد الظهر تصنع لكما حلوى مميزة.

حدقت فيلي الى دانيال بذهول، بينما كان ينزل تيم من على كتفيه وقالت:

ـ أيمكنك التمييز بينهما؟

نظر دانيال اليها بدهشة وقال:

ـ طبعاً.

فهزت فيلي رأسها، وتابعت:

ـ إذن، هذا يجعلك أحد ثلاثة في الدنيا يستطيعون ذلك!

سأل تيم بأمل محاولاً جذب مجرى الحديث إلى شيء مهم أكثر لديه:

ـ أهنا «جلو» مع الشاي؟

تمتمت فيلي مجيبة:

ـ لست أدري... لكن، في يوم كهذا اليوم، كل شيء ممكن... هل أنتما جائعان؟

حين أجابا معاً بالموافقة ضحكت بصوت مرتفع مليء بالسعادة الصرف.

ـ تعاليا إذن معي، سآخذكما الى المطبخ.

بجلوس الطفلين أمام الطاولة المليئة بالطعام، وتحت أنظار السيدة ماكومبر الحذرة، والفعالة، نظرت اليهما فيلي بشغف، ثم انسحبت عائدة الى دانيال الذي أمسك بيديها وجذبها لتجلس قربه.. وقال لها:

ـ منذ أسابيع.. كنت لوحدي تماماً.. والآن، يبدو لي أنني سأحصل على زوجة، وطفلين، وحماة.

ضحكت فيلي تمازحه:

ـ أتظن نفسك قادراً على تحمل كل هذا؟

في الوقت نفسه ازداد حبها له لإشارته الى التوأمين على أنهما طفلاه.. وقال يؤكد لها ذلك:

ـ لا أظن هذا سيكون صعباً. لكن كيف تشعرين أنت بأن تكوني «اللايدي كادوغان»؟ وأن تعيشي في منزل كأنه مخزن الظلام الضخم؟

ـ سأحب كل دقيقة من حياتي هذه، وكذلك الطفلين. إنه مكان رائع يكبر الأولاد فيه.

ـ أترغبين في متابعة العمل؟ أعرف كم من وقت وجهد بذلته لسنوات في الوكالة.

ـ لست أدري.. لطالما أحسست بالذنب بفعل ابتعادي عن التوأمين.. وسأفكر بالأمر. لكن ليس في الحال.. فكل ما أستطيع التفكير به في هذه اللحظات.. هو أنت!

برضى أجاب دانيال:

ـ جيد.

ثم ضحك:

ـ لست واثقاً بكيفية تقبل ماكومبر هذا! إنه يجد صعوبة في التعامل مع الكلبين.. وسيكون أمامه الآن طفلان صغيران يجتاحان المنزل. لا بد من أنه سيصاب بانهيار عصبي قبل انقضاء السنة.

وبإشفاق علقت فيلي:

ـ مسكين ماكومبر.. يجب أن نكون جميعاً بغاية اللطف معه.. كي نعوض له كل متاعبه.

تمتم دانيال يداعب عنقها:

ـ أفضل ان تكوني بغاية اللطف معي.. على فكرة.. ألم أخبرك عن ستيف؟

ـ ستيف؟

تذكرت فوراً الشاب المشابه لدانيال فسارعت تكمل:

ـ هل رأيته مجدداً؟

ـ عدة مرات.. لقد فكرت أن علينا محاولة التعويض عن كل

السنوات التي لم نعرف بعضنا فيها.

ـ إذن فهو قطعاً أخوك نصف الشقيق؟

ـ اجل.. ما من شك مطلقاً في هذا.. هناك اسم مختلف على شهادة ميلاده طبعاً، لكن ما من أحد ينظر إليه ويمكن أن ينكر أنه «ثورب».

ـ وكيف سارت الأمور بينكما؟

ـ لا تنظري إليّ هكذا حبيبتي، فأنا لم أصرعه منذ اول لقاء بيننا! لكن، كانت الأمور مترجرجة في البداية.. فما أن تحادثنا، حتى سويت الأمور بسرعة.. وتوصلنا الى اتفاق مرضٍ للمستقبل.

ـ مثل ماذا؟

ـ كبداية، اقترح ستيف موقعاً جديداً لمشروع الغولف والمجمع الرياضي الصحي. إنه يبعد ما يكفي عن (القرية) لإبقاء سكانها سعداء، مع ذلك سيبقى المكان يجذب الكثير من المداخيل للأملاك، ويوفر الكثير من فرص العمل. والأكثر من هذا، اتفقنا على أن يدير هو القصر.

ـ ماذا؟

ـ أنا رسام.. ولست إدارياً. وقبل أي شيء، أريد العودة الى عملي... وستيف أنهى لتوه دراسة الإدارة، ولديه الكثير من الأفكار الجيدة الخلاّقة للاستفادة تجارياً من القصر دون إفساده.. ومن المنطقي أن يتولى إدارته.. وسيعيش هنا بالطبع، فهو من العائلة، وله الحق في هذا.

ـ أعرف.. لكنني لم أتوقع منك أن تكون منطقياً هكذا.

ـ لكنني رجل منطقي.. طالما أحصل على ما أريد.

تحركت يداه عمداً لتقولا لها بوضوح ماذا يريد، ثم أكمل:

ـ السماء ما زالت تثلج بغزارة، وأظن أن حظك في العودة الى منزلك الليلة معدوم... ولا لعدة ليالٍ.

تنهدت فيلي ابتهاجاً بهذا التوقع، وهمست:

ـ أتمنى ان تثلج لأسابيع.. لكن بامتلاء القصر بالكلاب والأولاد، والخدم، أظن أننا سنخلو لحظات لبعضنا.

ـ هناك خمس وتسعون غرفة في القصر... ويجب ان نتمكن من إيجاد مكان لا يزعجنا فيه أحد.

انفجرت فيلي شوقاً للمسته وقالت:

ـ لقد كان للتوأمين يوم متعب.. وأظن أنني يجب أن اضعهما في السرير بعد انتهاء شربهما للشاي مباشرة.

ـ سأساعدك، وفيما بعد.. أحب أن أضعك أنت في السرير.. أتظنين هذه فكرة جيدة اوفيليا ليندن؟

دفنت أوفيليا وجهها في كتفه وقالت:

ـ لا أستطيع التفكير بشيء أرغبه أكثر من هذا.

ـ همم.. بالنسبة الى فتاة قديمة الطراز، أنت تظهرين شوقاً للارتماء بين أحضاني.

انفجر دانيال ضاحكاً وهو يمسك بيدها ويقول:

ـ فيلي...؟ الفتيات القديمات الطراز لا يجب أن يفعلن هذا!

فتصنعت العجب:

ـ أهذا صحيح؟ إذن ربما من الأفضل أن تضع التوأمين في الفراش، ثم نباشر غداً بمعاملات الزواج.

برقت عينا دانيال وقال:

ـ سيكون هذا من دواعي سعادتي، وسعادتك طبعاً.

أطبق صمت على قصر كادوغان حولهما، وهما يتبادلان عناقاً حاراً بطيئاً، طويلاً عقدا به اتفاقاً يدوم العمر كله.

* * *

liilas.com

rayqh

liilas.com
rayqh

مجلة روايات أحلام

السيد الحب

«- هل تظنين أنك تستطيعين النجاح حيث فشل غيرك؟
- أؤكد لك سيدي أنك ستجدني كفؤة في كل شيء!».

كل شيء؟! كان هذا تهوراً من اوليفيا، فمع رجل مثل اللورد كادوغان كان عليها توقع أي شيء، فسيد القصر رجل صعب المراس، في دمه عجرفة أسياد الماضي، وفي عينيه عبث شباب الحاضر.

اعتبرها اللورد، منذ دخولها قصره، أملاكاً خاصة له حق التصرف بها كما يشاء، وجرّها إلى شباك إغوائه خطوة خطوة حتى وجدت نفسها تائهة في غرف القصر المائة، ولا مهرب لها منه. فهل تحميها ذكريات ماضيها؟

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦د.	مصر ٤ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ر.	المغرب ١٥د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ف.	تونس ١٠٥د.	السودان
الكويت ٥٠٠ف.	السعودية ٧ر.	عمان ٦٠٠ب	العراق